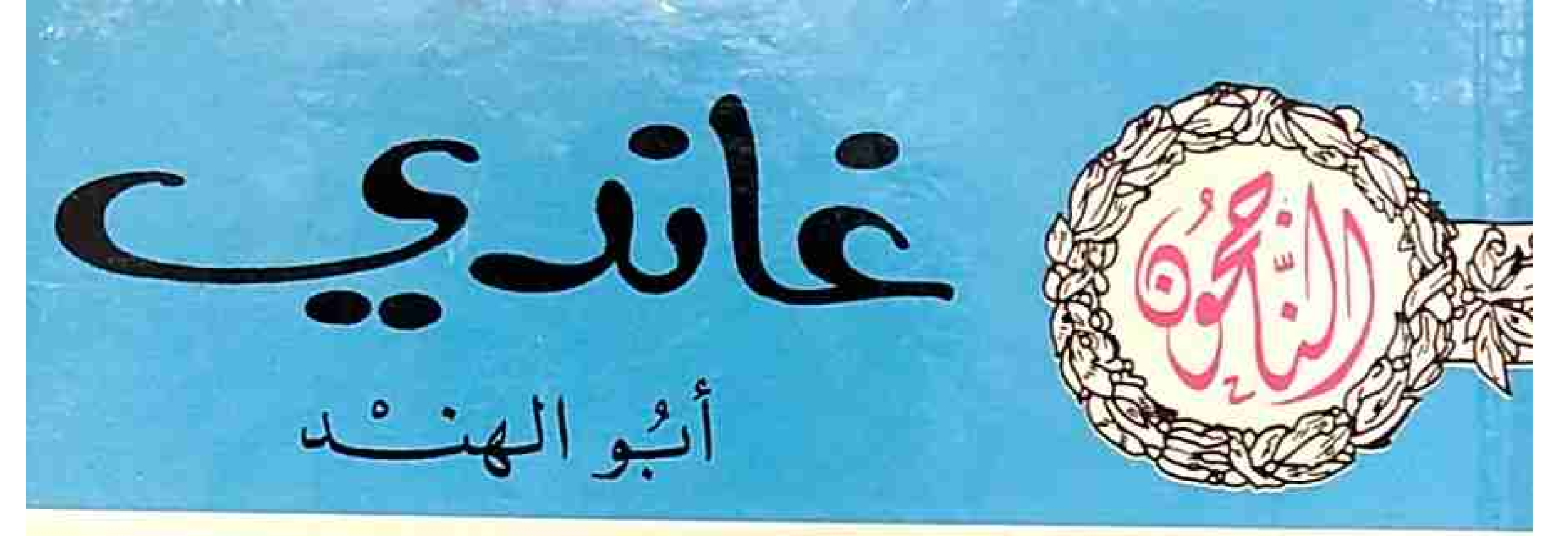
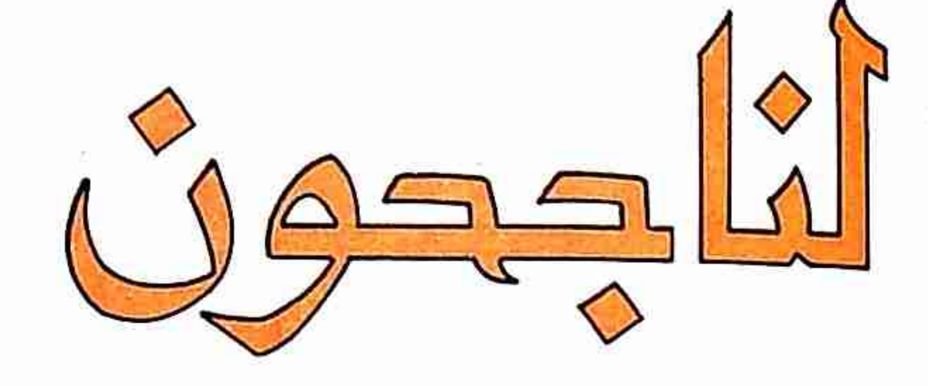


دار العلم للملايين



غاندي

أبُو الهنْد

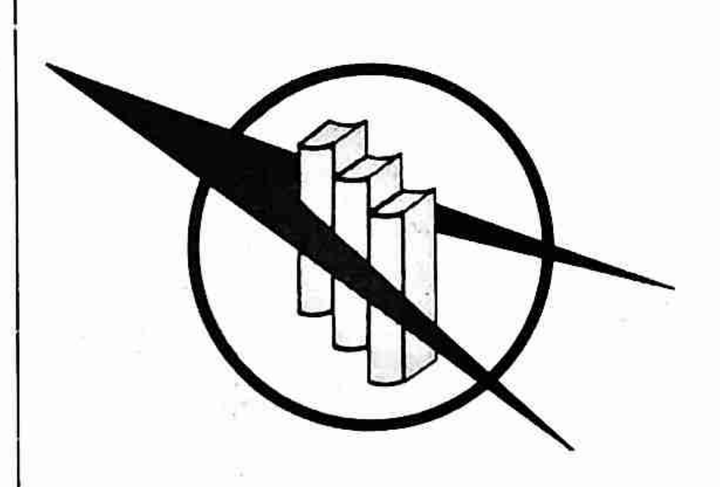
دار العلم للملايين
بيروت

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى ١٩٧٠

الطبعة السادسة عشرة

شباط (فبراير) ١٩٨٦

١

أشرقت الشمس ، يا أماه !

« يا زهرة الصمت في الصباح ! »

« يا من تسلكين دروباً لم يلوّثها غبار ولم تطأهـــا قـدم ! »

« ألا شُقّـي طريق الفجر ، »

« وكوني شفيعتنا عند الله ! »

تلك هي الصّلاة الأُولى التي تَمْتَمَتْهـا شفتا الطفل « موهنداس غاندي » ، بعد أن استوعبها في قلبه وعقله ، لكثرة ما سمع أبويه الهندوسيّين يتلُوانها في أواخر الليالي.

ارتفعت هذه الكلمات إلى السماء بحرارة الاستغفار المنطلِق من نفس طاهرة نقيّة ، نشأت في بيتٍ تحصّن بالفضيلة ، وانطبعت بما فيه من الورع والتقوى .

وكانت أم الطفل جاثيةً إلى جانبه ، فانحنت عليه بكلّ ما فيها من عطف الأمومة ، ولَثَمَت جبينه الأسمر بهدوء ، ثم خاطبتْه قائلة :

« قلْ معي : يا حبيبي : أنا حرّ ! أنا شجاع ! سأقول الحقيقة دائماً ! »

فردّد موهنداس :

« أنا حرّ ، أنا شجاع ، سأقول الحقيقة دائماً . »

وكان في صوته عُمق الإيمان الراسخ ونبرات الرجولة المبكّرة .

لم يكن قد تجاوز الرابعة من العمر بعد ، إلا أنه بدأ ينظر إلى الحياة باهتمام وجدّ ، كأنّ حَدْسَه كان يدلُّه على الرسالة العظيمة التي سيحملُها فيما بعد .

وما هي إلا ساعة حتى أطلّ الصباح ، وبرزت

الشمس متوهجةً من بين الغيوم ، فهرع الولد إلى أمه صائحاً :

ـ ها هي قد أشرقت يا أماه ، تعالي .. أنظري !

وكانت الأم جالسة في زاوية مظلمة ، وقد أرهقها الصَّوم الطويل ، فتحاملت حتى استطاعت أن تنهض ، وسارت بخطى بطيئة إلى الباب ، فإذا الشمس قد حجبَتها الغيوم .

قالت الأم بصوت لا يخلو من العتب :

ـ أين هي ، يا موهان ؟

فأجاب الولد مرتبكاً :

ـ أنا رأيتُها ، يا أمي ، صدِّقيني !

وانفجر باكياً ، فاحتضنته قائلةً :

ـ صدَّقتُك ، يا حبيبي ، ولكنَّها غابت . ويجب أن أراها أنا لِأَقطع صومي .

ـ أقسم لكِ بأني رأيتها !

فابتسمتْ قائلة :

ـ لو أراد اللهُ أن آكل هذا اليومَ لما حجبَ وجهها بالغيوم .

ومضت إلى عملها اليومي بنشاط كأنها لم تكن صائمة منذ ثلاثة أيام ، ناذِرةً ألاّ تتناول طعاماً إلا إذا أشرقت الشمس .

كان والد الطفل يدعى « كابا كرماشند غاندي » ، وينتمي إلى أُسرة اشتهرت بالصدق والشرف والشجاعة ، فعاش في « بومباي » موفورَ الكرامة ، محاطاً بالاحترام ، لنزاهته ، واستقامته ، وطهارة يده ، وعفّة قلبه ولسانه . ورفعه ذلك إلى منصب الوزارة ، فتحمَّل مسؤولياتها بقوة ، وأدّى فيها واجبه على الوجه الأكمل .

وأنجب (كابا) بنين وبنات ، وكان موهنداس أصغرَهم جميعاً ، فربَّته أُمه على مبادىء البِرّ والإحسان والأخلاق الكريمة ، حتى إن الصلاة التي كان يتلوها كلَّ مساءٍ قبل النوم هي :

« لا اريد ان اؤذي احدا ! اريد ان اصنع الخير دائما ! »

وعلى العَزْم الإنساني الرائع الذي تعبّر عنه هذه الكلمات القليلة كان (موهان) الصغير يستسلم للرقاد .

وكانت أُمه خيرَ قُدوة ومثالٍ له بتقواها ، وأعمالها الخيرية ، وقيامها بواجبها البيتيّ كاملاً ، وأحاديثها الراقية مع جاراتها وأبنائها وجميع الذين تتصل بهم .

تعلّم منها التكفير عن الذنوب بالصيام ، والصبر على الآلام ، ومجابهةَ الصعاب بهدوء وإرادةٍ لا تلين . ولم يكنْ مظهره الهزيل يدلّ على ما فيه من قوة الشخصية ، وسموّ النفس أبداً .

ولما بلغ السابعة من العمر أرسله أبوه إلى المدرسة ، فكان فيها ضعيف الذاكرة ، وظلّ تلميذاً عادياً ، لم يلمع في موضوع دراسيّ ، ولم تبدر منه بادرةُ تفوّق .

كذلك عُرف بين رفاقه بشدة الخجل ، وحبّ العُزْلة ، وكثرة التأمل والتفكير ، والابتعاد عن اللّهو واللعب . وقد اكتفى بحنان أمه ، وتبادر إلى ذهنه أنها تعرف كلَّ شيء ، وتستطيع كل شيء ، فتُغنيه عن العالم، وتملأ حياته بهجةً وهناء .

وأدركت الأُم مدى تعلّق ابنها بها ، فازدادت عطفاً عليه ، وراحت تجيب عن أسئلته على اختلاف موضوعاتها ، وتروي له قصصاً أسطورية وتاريخية عن أبطال قهروا الشرّ بإيمانهم وشجاعتهم ، فرسخت شخصيته على أساس متين من الثقة وحبّ الخير .

ولم يخرج عن طاعة أُمه إلا مرةً واحدة ، إذ نَهَتْهُ عن الإحسان إلى أحد المنبوذين فتمرّد عليها ، وذهب إلى المنبوذ فعانقه وقبَّله .

من هم المنبوذون ؟

المنبوذون في الهند طبقةٌ فقيرة متّهمة بالنجاسة والحقارة، يرذلها الجميع ويفرضون عليها كَنْسَ الطرُق، وإخراج القاذورات ، والسُّكنى في أكواخ عَفِنة تسرح فيها الجراثيم ولا يدخلها نور الشمس . هكذا وجدها الإنكليز يوم استعمروا الهند ، وهكذا أبقَوها ، فقد كان حكمهم يقوم على إبقاء البلاد متأخرة ، دون القيام بإصلاحات اجتماعية فيها .



موهان مع والدته أمام دارهم

وقالت له أمه :

ــ إن دِيننا ينهانا عن لمس هؤلاء الأنجاس ، يا ولدي ، وعلينا أن نعمل ما يفرضه علينا الدّين .

فأجاب :

ــ ان دادابي ، ابنَ خادمنا ، ولدٌ لطيف ، جَم التهذيب ، فلماذا لا أستطيع أن ألمسه ؟

ــ لأنه منبوذ !

ــ هل سرق ، أم كذب ، أم اعتدى على جاره ؟

ــ كلا ، ولكنه منبوذ ! هكذا أراد الله .

ــ ولماذا أراد الله أن يكون هذا الولد اللطيف الشريف منبوذاً ؟ أنا أشكُّ في أنه أراد ذلك ..

فلزمت الأم الصمت ، ومضى موهان في سبيله عازماً على أن يحب دادابي المنبوذ ، مهما يكلّفه الأمر .

وما هي إلا سنوات حتى أنهى موهان دروسه في المدرسة الابتدائية ، وانتقل إلى مدرسة ثانوية ، وقد بلغ الثانية عشرة من العمر . وكان بين رفاقه مثالَ الصِّدق

والاستقامة ، يعترف باخطائه معتذراً كلّما أخطأ ، ويرفض كل مساعدة من غيره أو غشٍّ في الامتحانات .

وفي هذه الفترة من حياته قرأ موهان قصة الفتى الهندي « شرافانا » الذي أحبَّ أبويه حتى التفاني، وحملَهما على ظهره في رحلات طويلة شاقة ، وبذل لمساعدتهما كلَّ ما أوتي من قوة ، لأنهما كانا ضريرَين لا يبصران .

وما كاد موهان يفرَغ من قراءة هذه القصة حتى قال في نفسه : « هوذا الإنسان القُدوة ! » وقرر أن يغتنم مختلف الفرص ليساعد أبويه وسواهما من الناس قدر المستطاع .

وشهد بعدئذٍ تمثيليَّة « هريشندرا » ، وهو بطل أسطوري نَذَرَ حياته لخدمة الحق ، وعانى أشدَّ العذاب في سبيل مبادئه الخيرة. فكانت الأسطورة أمثولةً جديدة فَهِمها موهان بعقله وقلبه ، وبات يسائل نفسه : « لماذا لا يكون جميع الناس صالحين ، فتفوز هذه الإنسانية بالسعادة الكاملة ؟! »

وبدأت عيناه تتفتّحان على واقع بلاده ، وهي تُعاني في قيود الاستعمار الانكليزي ، ويعاني شعبها الكبير آلامَ الجوع والمرض كي يشبع الإنكليز، فيما يظل هو غارقاً في ظلام الجهل ، والاعتقادات الخرافية ، والعادات الضارة .

وعاهد موهان نفسه على أن يخدم هذا الشعب ، وأن يشقّ له طريق الحرية بالمحبة والصبر ، وأن ينقذَه من الأمراض ، المادية والمعنوية ، التي تفتك به وتجرُّه إلى الشقاء .

لقد أحسّ الفتى موهان غاندي بانه صاحبُ رسالة ، وهو ما يزال مغموراً لا يسترعي انتباه أحد .

٢

قوة المحبة

من عادات الهنود تزويجُ أبنائهم في سنٍّ مبكِّرة ، ولم يشذّ كابا غاندي عن هذه القاعدة ، فعزم على تزويج ولده موهان ، وهو ما يزال تلميذاً في المدرسة .

ولما فاتح كابا أخاه بما ينوي ، أجابه ذلك الأخ :

ـ ولِمَ لا نزوِّج ولَدينا معاً ، فنقتصد في نفقات العُرسين إذ نجعلهما عرساً واحداً ؟

وتم الاتفاق بين الأخوين على أن تكون حفلة الزفاف مزدوجة . كان الصبيّان المرشّحان لهذا الزواج لا يعلمان

من أمره شيئاً . إلا أنهما رأيا الاستعدادات لإقامة حفلة كبيرة ففرحا بها ، واغتبطا بما قدَّم لهما أهلُهما من ثياب جديدة . . ثم علما أن الحفلة ستقام لهما ، وأنهما العريسان السعيدان .

وأقبلت ليلةُ العرس . فرأى موهان الخطيبة التي اختارها له أبواه تدنو منه معصوبة العينين في مهرجان من الموسيقى والغناء والأزهار وأنواع الزينة .

دارت العروس حول المذبح الهندوكي سبع مرات ووقفت ، فاقتدى العريس بها ووقف أمامها ، ثم نَطَقَ بالقسَم الذي تلقَّنَه من أمه صباحاً : « أُقسِم بأبويَّ ، وبالإله الواحد ، أن أغمركِ بحناني ، وأن أحميك وأحبكِ ! » ورددت العروس الكلماتِ ذاتها ، ثم مشى العروسان بين المشاعل ، فأُلقي عليهما ستار كبير حَجَبَهُما عن الأنظار .

وفي هذه اللحظة رفعت الفتاة العصابة عن عينيها ورأت زوجها للمرة الأولى . ثم رفع الكاهن الستار

وأقسم العروسان يمين ولاءٍ وإخلاص جديدة :
« يدُك على يدي ، وقلبُك على قلبي ، وقلبانا متّصلان بقلب الله ! »

وعلم موهان أن زوجته تدعى « كستوربي » ، وانها تنتمي إلى أسرة هندية شريفة .

انصرف العريس إلى حياته الزوجية سنةً كاملة ، ثم عاد إلى المدرسة ، فكان مثالَ الطالب المجتهد ، المطيع ، فلم يعاقَب في حياته المدرسية إلا مرة واحدة ، لأنه تأخّر عن حضور التدريب الرياضي . وكان لذلك سبب :

كان أبوه مريضاً مشرفاً على الموت ، فما استطاع أن يغادر البيت في الوقت المناسب . ولم يكن يحمل ساعةً لمعرفة الوقت بالضّبط ، فوصل متأخراً ، ولم يستطع اللّحاق برفقائه إلى الملعب البعيد عن المدرسة .

ولمّا حاول الاعتذارَ في اليوم التالي اتّهمه معلم الرياضة بالكذب.. فآلمه هذا الاتهام وذرف دموعاً غزيرة ، وعاهد نفسه على أن لا يتأخر في المستقبل .

وفي هذه الأثناء قاده سوءُ الطالع إلى معاشرة فتى فاسد الأخلاق ، سيّىء السمعة . وقد حذّرتْه أُمه وزوجه من معاشرته ، فما قبل تحذيرهما ، إذ رسخ في ذهنه أنه أصبح رجلاً يميّز الخير من الشر ، ويستطيع أن يشقّ طريقه في هذه الحياة بوسائله الخاصة . وقال يوماً لأُمه :

ـ لماذا تخافين أن يفسدني هذا الصديق ، ولا تظنّين أني سأُنقذه من فساده ؟ أليس من المحتمل أن أهديه إلى الفضيلة عِوضاً عن أن أتبعه على طريق الرذيلة ؟

فأجابت الأم :

ـ إذا كان هذا قصدُك ، فليبارك الله . ولكني أرى لِزاماً عليّ أن أُنبّهك .. فطريق الخير وعرة صعبة وطريق الشر سهلة مغرية .

وما لبث موهان أن اقتنع بأنه قد أخطأ ، وبأن أُمه وزوجه على صواب ، إذ عجز عن إصلاح صاحبه . بل لقد عجز عن الاسترسال في معاشرته ، لاختلاف رأييهما في أهم شؤون الحياة .



موهان غاندي وعروسه عند المذبح

وتبيّنت لموهان ، في هذه الحقبة من حياته ، حقيقةٌ قاسية : هي أنه جبـان ، يخاف الظلام ، والأشباح ، والأفاعي ، ولا يجرؤ على مغادرة منزله ليلاً ، ولا ينام إلا إذا كانت الأبواب حوله مقفَلة ، والستائر مُسدَلة ، والأنوار مُشعّة .

وقد أنّب نفسه مراراً على ذلك ، وحاول أن يتشجّع فأخفق . وقيل له إنه جبان لأنه لا يأكل اللحم ، وأن الخوف وليدُ الضعف الجسدي ، وان الانكليز أقوياء لأنهم يغذّون أجسادهم بالأطعمة الدسمة ـ فانتابتْه أزمَةٌ نفسية حادّة ، واستولت عليه الحَيْرَةُ والارتباك !

فكيف ينحرف عن تعاليم مذهبه ويغيظ أبويه ؟ إن دينه لا يسمح له بأكل اللحم !

لم يكن في وسعه أن يأكل اللحم خِفيةً .. لأنه يكره النّفاق ، إلا أنه أراد أن يواجه التجرِبَة ، فاستعدّ لها استعداد المحكوم لمواجهة الموت . وذات يومٍ دخل مطعماً أوروبياً وطلب طعاماً فيه لحم ، وهو يشعر بأنه يغوص في الرذيلة . وما كاد يتناول اللّقمةَ الأولى حتى اعتراه

القرف ، فارتعدت أطرافه ، وتبلّل وجهه بالعرق البارد ، وخُيِّل إليه أنه رجلٌ هالِك . فهبّ واقفاً ، ثم دفع ثمن الطعام وهرول إلى منزله ، فاستلقى على فراشه وأخذ يبكي .

وكانت ليلته تلك من أقسى ما عرفَ في حياته الحافلةِ بالعذاب .

غير أن صديقه المتمرّد على التقاليد القديمة لم يَدَعْه وشأنه ، بل راح يهوّن عليه الأمر حتى أقنعه بأنّ أكل اللحم هو السبيلُ الوحيد لاكتساب القوة ، وأن القوة ضروريةٌ لخدمة الهند وتحريرها من استعمار الإنكليز لها ونَهْبِهم خيراتِها الكثيرة .

وكانت هذه الفكرة كافيةً لحمل موهان على مواجهة الصعاب . فبدأ يروّض نفسه على قبول الأطعمة الأوروبية . واضطرّ إلى إخفاء هذه الحقيقة عن أبويه ، فتألم في أعماقه ، وأصبح يعاني توبيخ الضمير ليلَ نهار ، ولا يدري كيف يخرج من هذا المأزق الحرج . وما انفكّ يتعذّب في إحساسه ووجدانه حتى قرّر الانفصال نهائياً عن ذلك الصديق الشرّير ، والعودة إلى طريق الطهارة والفضيلة .

وذات يوم خطر له أن يدخن ، ففعل ، ثم ندم ، واستفظع ذنبه حتى اعتبره خطيئة مميتة ، فعزم على الانتحار .

لم يكن موهان يملك من المال ما يشتري به سمّاً، فذهب إلى الغابة ، وجمع حفنة من بذور الداتورة . ثم عاد إلى الهيكل ، فابتلع بضع حبّات وجلس ينتظر الموت ، فإذا بالخوف يستولي عليه ، ويكاد يفقده صوابه . فجثا خاشعاً ، وابتهل إلى الله أن يهبه الخلاص . وقد نجا ، لأن تلك الحبّات لم تكن كافية لقتله . وقد أحدثت هذه المغامرة في نفسه أعمق الأثر ، وقال فيما بعد : « ليس الإقدام على الانتحار كتصوّره . ما سمعت قط بأن رجلاً يريد الانتحار إلا صدّقته . »

ولما بلغ موهان الخامسة عشرة تعرّض لتجربة أشد من كل ما مرّ به .. فقد علم أن أخاه استدان مالاً وعجز عن تسديده ، فهاله الأمر ، ودفعته محبّته الأخوية إلى سرقة قطعة ذهبية من حليّ أخيه المدين ، فباعها ودفع الدَّين المستحق .

وفي ذلك المساء هجرَ النومُ عينيه ، وارتفع صوت ضميره موبِّخاً : « أنت سارق ! أنت لص ! »

وهبَّ من فراشه مذعوراً . ولما أقبلتْ أُمه سائلةً عن سبب قلقه واضطرابه ، أحسَّ بأنه مخلوقٌ حقير ، وغيرُ جدير بمحبّة هذه الأم الحنون ... فقال لها :

ـ رحماكِ ، يا أماه ، دعيني وحدي !

ولما اشتدَّ عذابُه أراد أن يعترف لأبيهِ بما فعل ، ولكنّه لم يستطع أن يتلفّظ بشيء من ذلك .

ألا ينعقد لسانهُ في فمه إذا حاول أن يقولَ لذلك الوالد المريض : « أبتاه ، إني سارق ! »

وبعد محاولات عديدة عَمَدَ موهان إلى الكتابة ، فاعترف خطِّيّاً .

يومذاك دخل غرفة أبيه والورقةُ المكتوبة في يده .

هناك وقف مطرقاً، دامع العين، كسير القلب. فاعتدل الوالد في فراشهِ وسأله عن حاجتهِ ، فمدَّ إليه الورقة .

وفيما كان الأبُ يقرأ ، كان موهان يرمُقُه مرتعدَ

الأوصال ، ممتقعَ الوجه ، يكاد يسقط غائباً عن الصواب ، وقد عجزَ عن كَبْتِ دموعه ، فانهمرتْ على خدّيه .

وبكى الأبُ أيضاً . إلا أنَّه لم يغضب ، ولم ينفجر ، بل مزّق الورقة ، واستلقى على فراشه ، ثم مدَّ يدهُ الجافة يتلمَّس بها جبينَ ولده المحموم .

قال موهان بصوتٍ تخنقهُ الزفرات :

ـ أبتِ ! ألا توبِّخني ؟ ألا تضربني ؟ ألا تَطرُدني من هذا البيت ؟ أحقاً غفرتَ لي ؟ وهل أستحقُّ غفرانك ؟

فلزمَ الوالدُ الصمت. غير أن يدَهُ كانت تُلامس جبين ولده ، وفيها من معاني الحنان ما يتضاءل دونه كلُّ بيان .

ولَثَم الفتى تلك اليد بحرارة ، ثم وضعها على قلبه وهو يَبكي في صمتٍ وخشوع . وبعد قليل عادَ إلى غرفتهِ .. فإذا هو يَشعر بارتياحٍ نفسانيٍّ كبير ، يجعل الدنيا في نظرهِ حافلةً بالبهجةِ والسرور .

وأدرك موهان أن أباه طهّره بالحبِّ لا بالعقاب ، فآمن بقدرة المحبة على تطهير العالم من شروره ، وعلى إنقاذ الشعوب المستضعَفة من مظالم المستعمِرينَ الأقوياء .

٣

في مهبّ الشباب

فقد موهان أباه لمّا بلغ السادسة عشرة من عمره ، فاحسّ أنه أصبح رجلاً يتوجّب عليه الاتّكالُ على نفسه. وما كاد يُنهي دروسه الثانوية حتى التحق بكلية ساملداس في بافنجار ، ولم يستطع فهم المحاضرات التي تُلقَى فيها لضحالة ثقافته ، فعاد إلى منزلهِ ، وصارح أهله بالحقيقة . وقال لهم :

– إن أساتذة الكلية أصحابُ كفاءة وعلم ، ولكني عاجزٌ عن فهم ما يشرحون ، فأنا لا أستطيع اللّحاق برفقائي في الصف .

وكان لآل غاندي جارٌ حكيم ، سديدُ الرأي ، فاقترح إرسال موهان الى انكلترا . ولقي اقتراحُـــه قبولاً من الجميـع ولاسيـما موهان الذي كان يحُلُم برؤية بلاد جديدة. وقدأوعز إليه أخوه أن يجتنب الطبّ فلا يضطر الى تشريح الجثث ، وأن يدرسَ الحقوق ليصبح محاميــاً . وكانت حجـّة الأخ دامغةً إذ قال :

ـ إن الهند في أشدّ الحاجة الى رجال القـــانون ، يا أخي ، ليدافعوا عن حقوقها التي يهضِمها الإنكليز المستعمِرون منذ زمن بعيد .

وانتقلَ موهان الى بومباي ، ليسافر من هناك الى لندن ، تاركاً وراءه زوجةً وطفلاً رضيعاً . فهبّ كهنةُ طائفتهِ لمنعه من مُغادرة الهند ، وقال لهُ أحدهم :

ـ لا نسمحُ لكَ بالذّهاب الى بلادِ المفاسد ، لأننا نعلم أنه لن يُتاح لكَ هناك أن تقيم شعائركَ الدينيــة على وجهها الصّحيح .

وقد أجاب موهان بلهجةٍ فيها الكثير من التوسُّل :

ـ أقسمتُ لأُمي أن أُحافظ على أخـــلاقي ، وأن أجتنبَ ثلاثاً : الخمر ، واللحم ، والنساء .

قال الكاهن الهندوسي بقوّة وحزم :

ـ لن تُسافر ! فأنا لا أثقُ بوعودك .

فأجاب الفتى :

ـ إني أحترمك ، يا سيّدي ، ولكني أعتقد أن طلبَ العلم حقٌّ مشروعٌ من حقوقي ، وانك تتدخّل في أمر يعنيني وحدي ، ويعني بالتالي أسرتي ، ولهذا السبب فأنا لن أُطيعَ أمرك !

فاستشاط الكاهن غضباً ، وقال مشيراً إلى موهان :

ـ هذا الفتى خارجٌ على الطائفة ومطرودٌ منها .

يا لَرَجل الدين هذا من متعصّب ضيّق التفكير ! إنه يخدم أعداءَ بلاده بمنع العلم !! وهل هو إله حتى يطرد غيره من الدّين ! إنّه دينٌ تجاريٌّ إذنْ .

وحار موهان في أمره ، فكتب الى أخيه يستوضحه رأيَه في الأمر ، فأجابه أخوه : « لا بأس عليك ، فأُمُّنا تباركك ، وهي راضيةٌ عنك . إن الدّين لا يملكه كاهنٌ ! »

فاستعاد الفتى نشاطه ، وراح يستعدُّ للرحيل .

وفي أواسط أيلول ١٨٨٩ وصل موهنداس غاندي

الى لندن ، وقد ناهزَ العشرين من العمر ، فاستأجر غرفة في فندق ، مصمماً على ترويض نفسه حتى يألف عاداتِ الإنكليز ويستطيع معايشتَهم .

وبعد قليل تبيّن له أن الحياة في الفندق لا تسمح له بمعرفة الناس ، فاستأجر غرفة في دار أُسرةٍ إنكليزية . إلا أنه اصطدم بعقبة جديدة لم يكن قد حسب لها حساباً ، هي مشكلة الطعام : فهو لا يذوق اللحم .. وقليلاً ما تكون أطعمةُ الإنكليز خاليةً من اللحوم !.

ولقد تضايقت منه ربة الدار فقالت له مازحة ذات يوم:

ـ لو كنتَ أخي لشحنتُك الى بلد بعيد وارتحت من عنادك .

فأجابها بهدوء المؤمن :

ـ لقد وعدتُ أُمّي ولن أحنث بوعدي .

ترى .. هل كانت أم موهان هي الهند كلّها ؟! نعم ، إنها تقاليد شعبه .

وفي ذات يوم عثر غاندي صدفةً على مطعم للنباتيّين لا يدخل اللحم أطعمتَه، فامتلأت نفسه سروراً ، وأصبح من روّاد ذلك المطعم الدائمين .

ولما استأنس غاندي بحياته الجديدة أراد أن يحذو حذو الإنكليز في مختلف تصرفاتهم. فجعل يُعنى بهندامه، ويزور الأندية وبعض أماكن اللهو. ثم قرر أن يتعلم الرقص والعزف على الكمان، والإلقاء، فكاد يهمل دروسه وينصرف كليّاً الى حياة اللهو والطرب، لو لم يكن له رقيبٌ من أخلاقه وتربيته البيتيّة المتينة. فذات يوم أحسّ فجأة أنه يكاد يضلّ طريقه، وتذكّر أنه جاء لندن ليدرس الحقوق لا لينشُد المتعة والترف، فراح يقول للفتاة التي تعلّمه الرقصَ والموسيقى:

ـ أعترف لك، يا آنسة، أني على ضلال! ومن واجبي أن أُقلع عما أتعلّم منك لأنصرفَ الى درس الحقوق.

وكان هذا آخر عهده بالرقص والموسيقى. أما الإلقاء فقد حذقه في ممارسة المحاماة وقيادة الجماهير ضد مستعمري بلاده الانكليز.

وفي إحدى الفرص المدرسية أقام موهان مع أسرة تقطن بلدة «فانتور»، فطلبت منه ابنةُ صاحب الدار ـ عملاً بالتقاليد المرعيّة في انكلترا ـ أن يرافقها في نزهةٍ الى



غاندي مع معلمة الرقص في أحد المطاعم

الريف . فلبّى طلبها. فإذا بها أسرعُ منه خَطواً، وأقدرُ على تسلُّق التلال . وما إن مشى معها بعض الوقت حتى أحسّ بالتعب ، وكاد يتوقف ، فسألها :

ـ متى نعود الى البيت !

فأجابت :

ـ ما عليك ! السماءُ صافية ، والهواء عليـل .. دعنا نستمتع بجمال الطبيعة .

وراحت تركض بين الأعشاب ، وتتسلَّق التلال ، وهو يتبعها لاهثاً ، حتى اضطرّ أحياناً إلى أن يدِبّ على الأربع عَلَّهُ يتفادى السقوط .

فضحكت الفتاة مبتهجةً ، وأخذت تخاطبه كأنه طفلٌ عاجز ، وتعرِض عليه مساعدتها . فشكرها بتواضعٍ معاهداً نفسه بأن لا يرافق فتياتٍ إنكليزيات في نزهات طويلةً الى الأرياف .

وفي أحد المطاعم تعرّف صدفةً على سيدة عجوز ساعدته على قراءة لائحة الطعام التي كانت مكتوبةً بالفرنسية . وتوثّقت عُرى الصداقة بينه وبينها ، فَدَعَتْه إلى زيارتها في منزلها ، وعرّفته بفتاةٍ حسناء على أملِ أن يقترن بها . فأبت عليه مروءته أن يخدع صديقته العجوز وصاحبَتَها الجميلة ، فصارحها بأنه متزوج .

وروت إحدى الصحف اللندنيّة خبراً مفاده أن موهان أحبّ ، في ذلك الحين ، فتاة تدعى « اليزابيت هدبورن » وعاهدته على السفر معه الى الهند ، إلا أنها ما لبثت أن تُوُفِّيَتْ قبل أن ينهي دراسة الحقوق . غير أن هذه الرواية تفتقر الى إثبات .. فقد تكون ملفّقة بعد أن أصبح غاندي عظيماً . هذا على الرغم من أن غاندي

ذكر أحياناً اسم اليزابيت في بعض أحاديثه ، ومن ذلك قوله :

« أحببتُ أمي أكثر مما يحب الابن أمه ، وأحببت زميلة لي في لندن أكثر مما يحب العشيق عشيقته ، وقد فقدتُ الأولى والثانية في عام واحد » .

وفي أواخر أيامه الدراسية قرأ أسفار « الغيتا » ، أي الصوفيّة الهندية المترّفعة عن الدنايا ، والداعية إلى الزُّهد والتقشف.. فآمن بها ، وقال : « هذا الكتاب يهدي إلى الحق » !

ودرس التوراة ، فَنَفَرَ من العهد القديم ، ولم تقبل نفسه تلك الأخبار، ثم انصرف إلى مطالعة سيَرِ المصلحين العالميّين ، فاستهواه كتاب كارلايل : « الأبطال وعبادة البطولة » ، وأعرب في مناسبات عديدة عن إكباره للنبيّ محمد ﷺ .

وما لبث غاندي أن أنهى دروسه ونال شهادة الحقوق ، فاصبح في وُسعه أن يمارس المحاماة . ولكنه ظلّ متردداً يشك في قدرته على مجابهة المحاكم ، حتى حظِيَ بصداقة

تاجر هندي كبير يدعى « دادا باي نايورجي » ، فشجعه هذا وأزال التشاؤم من نفسه ، ودفعه دفعاً إلى معترك الحياة ، ثم دعاه إلى درس تاريخ بلاده ، الهند ، ليستطيع أن يخدمها .

وفي يوم بهيج من أيام الصيف ، ركب غاندي باخرة حملته من إنكلترا الى الهند، وهو غارق في تأملاته يفكر في إصلاح شعبه ، وقيادته من الفقر والمرض والجهل والعبودية ، إلى الثراء والعافية والعلم والحرية .

وفي بومباي كان اللقاء بين المحامي الشاب وأخيه ، وزوجه وطفله الذي بلغ الرابعة من عمره وأبوه غائب .

وسأل موهان عن أمه ..

فأجابته دمعة انحدرت من عين أخيه .

وكانت وطأة الأسى أشدَّ وقعاً من بهجة اللقاء ، فمشى «المحامي موهان» إلى منزله كئيباً يفكر بالّتي جعلته رجلاً بحبِّها وحنانها وصبرها العجيب .

٤

جحيم الهنود في جنوب أفريقيا

عاد موهان إلى بلاده وهو يعتقد أن كَهَنَةَ طائفته قد غفروا له ابتعادَه عن وطنه بعد أن برهن لهم أنه لم يرحل إلا ليتعلم . ولكنهم ظلّوا ناقمين عليه .

وأقام أخوه وليمة كبيرة لِيَستَرضِيَ الغاضبين فلم يُفلح . وهذه طبيعةُ رجال الدين الضيّقي الأفق . ناهيك بأن الحظ لم يحالف موهان في عمله ، فاسودّت الدنيا في عينيه ، وخصوصاً حين تبيّن له أن المحامي يضطر أحياناً الى الدفاع عن الباطل لخدمة موكّله .. وهذا ما لم يستطع غاندي القيام به ، مهما تكُن مكاسبه في مهل

هذا العمل مُغرية . والحقّ أن المحامي رجلٌ يعيش من الجريمة ... ويموت جوعاً إن لم تقع ، ولذلك نجدهم يقلقون كلّما ارتقت المجتمعات .

ولما سُدّتْ في وجه غاندي أبواب الرزق تخلّى عن ممارسة المحاماة ، وانصرف الى تربية أولاد أسرته ، فكان يجد مُتعةً روحيةً عظيمة في معاشرة الأطفال ، وتلمّسِ براءتهم ، حتى لقد تبادر الى ذهنه أنه وُلد ليكون مربّياً .

ولكنه لم يطلّق المحاماة نهائياً قبل القيام بمحاولة أخيرةٍ لتجربة حظه فيها ، فانتقل الى بومباي حيث أكبّ على درس القوانين الهندية .

وبعد عَناءٍ طويل لم يوفَّق إلى عملٍ يُكسبه ما يسدّ به رَمَقَه ، فعاد الى بلدته راجكوت ، واجتهد في إرضاءِ الزبائن . فبدأت أحوالُه تتحسّن ، وبلغ دَخْلُه الشهريّ حوالى ثلاثمائة روبية .

وذات يوم أُلصقت بأخيه تهمة كان بريئاً منها، فطلب منه أخوه أن يتوسّط له عند القاضي ، فأجابه موهان بشيء من العنف :

ـ ما دمتَ بريئاً فلِمَ أنت خائف ؟ ما عليك إلا أن تُثبت براءتك أمام المحكمة !

فضحك المتَّهم البريء وقال :

ـ هل أنت ساذَج إلى هذا الحد ، يا أخي ؟ ألا تدري أن القضايا في بلادنا لا تُحلّ إلا بالوساطة والشفاعة؟ لا قيمة في محاكمنا للحُجَج المقنعة .. صدِّقني وتوسَّطْ لي لدى القاضي ، فهو صديقك ، ولا يردُّ لك طلباً .

فأذعن موهان وذهب إلى القاضي الذي استقبله جالساً، وخاطبه بجفاءٍ رافضاً مصافحته ...

ولما عاتبه غاندي على هذه المعاملة التي لا داعي لها ، أجابه القاضي الإنكليزي :

ـ نعم ، كنتُ صديقك في لندن أما هنا فلا مجال للصداقة بين انكليزيٍّ وهندي ! إن أخاك دسّاس ، ولا أُصدّق حرفاً مما تقول لتبرئته .

ـ ولكن ، يا سيِّدي ، اسمح لي أن أشرح لك القضية ...

ـ لا تشرح شيئاً ! أخرج حالاً .

هذه نفسية الأوروبيّ المستعمِر .. وهذه نظرته لأبناء المستعمرات ، بل للشرقيّين عامة .

وارتبك غاندي وتردّد ، فإذا بالقاضي يأمر أحدَ الخدم بإخراج المحامي المزعج . وهكذا أُخرج موهان من حضرة القاضي طرداً ، وبما يشبه القوة .

وفي الشارعِ أحسّ غاندي بالغضب يغلي في نفسه التي ما عرفتْ غيرَ العطف واللُّطف والمحبة . وما إن وصل الى بيته حتى كتب إلى القاضي مهدّداً برفع قضيته الى الحاكم العام ، فأجابه القاضي : **« ارفع أمرك الى من تشاء ! فالقاضي انكليزي أولاً وأخيراً » !**

ونصحه أصدقاؤه بالعدول عن رفع شكواه الى الحاكم ، ثم أقنعوه بان الحاكم **منحازٌ** بطبيعته الى القاضي ، ولا يمكن أن يسيء إليه من أجل رجلٍ هنديّ ! فاقتنع بما سمع ، ولكنه لم ينسَ الإهانة التي استقرّت في صدره كالعِبْء الثقيل . فغلب عليه التشاؤم ، وكاد ييأس من

النجاح . لم يكن قد اهتدى الى طريق الثورة على مستعمري بلاده بعدُ .. لقد كان تائهاً .

وفيما هو حائر في أمره ، لا يدري كيفَ يواجه المستقبل ، ولا كيف يجد عملاً يكسب منه قُوتَ عياله ، تلقّى أخوه رسالةً من إحدى المؤسّسات التجارية في « بورباندر » من جنوب افريقيا ، تقول : إن لهذه المؤسسة قضيةً هامة ما تزالُ أمام المحاكم منذ سنوات ، ويودّ المدير العام أن يسافر المحامي غاندي إلى بورباندر ليلاحق هذه القضية .

فرح موهان بهذه الرسالة فرحاً عظيماً ، واعتبرها نعمةً حلّت عليه من السماء ، فقبِلَ العرضَ بلا مساومة ، وراح يستعدّ للسفر .

كان آنذاك قد بلغ الرابعة والعشرين من العمر . وما إن هبط جنوب إفريقيا حتى أدرك أنه وصل الى جحيم من الشقاء لا يُقاس بها جحيم الهند ! فهناك عشراتُ الألوف من العمال الهنود يعانون من الظُّلم والاضطهاد والإذلال ما لا يُطاق ، ويخضعون لقانون التمييز العنصريّ

الذي يجعلهم في مستوى الحيوانات .. فلا حقّ لهم ولا كرامة . أليست البلاد خاضعةً للاستعمار الإنكليزي ! وهل يمكن أن يعود منه خيرٌ ، وما هو إلا نهبٌ لثروة البلاد التي يحلّ فيها !

ولم ينجُ غاندي نفسه من المعاملة المُهينة التي يتعرّض لها مواطنوه كل يوم . ففي الجلسة الأولى التي وقف فيها أمام المحكمة ليرافع، نظر إليه القاضي الإنكليزي بازدِراء ، ثم صاح به :

- إنزع عمامتك عن رأسك أيها الآَسْيَويّ !

فانتفض موهان وأجاب :

- لن أنزعها !

لقد شعر أن في نَبْرة القاضي غَطْرَسةً ووحشيّةً معاً ، إذ ما معنى « أيها الأسيوي » ! أليست تعني « أيها المحتقَر » في نظر الأوروبيّين !

وخرج من المحكمة غاضباً ، وكتب مقالة في إحدى الصحف المحلّيَّة روى فيها هذه الحادثة المؤسفة ، وانتقد النظامَ العنصريَّ انتقاداً لاذِعاً . فلم يُعِرْهُ أحد انتباهاً .

وفي مدينة « بريتوريا » ، كان يوماً سائراً على الرصيف ، فإذا بشُرطيٍّ يعترض سبيله قائلاً :

« إنزل عن الرصيف ، فهو للسادة ، لا للعبيد . إن مكانك مع البهائم ، على قارعة الطريق . إنك لست أوروبيّاً » .

ولم يستطع غاندي إلا أن يُذعِن ، خوفاً من الهَراوَة الغليظة التي كان الشرطي يلوّح بها مهدِّداً .

وسافر مرّةً الى « الترنسفال » بالقطار ، فأمره المفتش بمغادرة حافلة الدرجة الأولى ، على الرغم من دفعه ثمن بطاقتها كاملاً . ولما استفسر عن السبب أجابه ذلك المفتّش مُستَهْزِئاً :

ــ ألا تدري أنك ملوَّنٌ قذِر ، وأن الدرجة الأولى ليست لأمثالك ، بل للإنكليز والاوروبيّين !!

ولما تردّد غاندي محاولاً الدفاع عن حقه ، دفعه المفتش الى خارج الحافلة دفعاً ، وألقى حقيبته على الرصيف صائحاً :

ــ إذهبْ الى الشّيطان ولا تُسمعني صوتك !

واضطُرَّ الى متابعة السفر في مركبة عامة ، فأجلسه صاحبُها الى جانب السائق . وفي أثناء الطريق خَطَرَ لأحد الركاب البيض أن يجلس الى جانب السائق ليدخّن سيكارة ، فامر غاندي بالتخلّي عن مكانه ، والجلوس على أرض العربة ، بين أرجل الركاب .

وقد رفض غاندي الانصياعَ لهذا الأمر .. فانهالَ عليه صاحبُ المركبة ضرباً حتى كاد يقتله .

هذه حضارة التفريق العنصري الذي يطبّقه الأوروبيّون في جنوب افريقيا. وكذلك الحال مع الزنوج في أمريكا .. كل هذا لأنهم بيض !!

وفي الترنسفال لم يجدْ غاندي فندقاً يقبله ، لأنه ملوّن. وكان كيفما توجّه لا يقابَل بغير الهُزْءِ والازدراء، فقرّر أن يطلّق الصبر ، وأن يبادر الى النضال دفاعاً عن حقوق الفرد وكرامة الإنسان .

وفي سنة ١٨٩٦ سافر غاندي إلى الهند لإحضار زوجته وأولاده. فكتب المقالاتِ، وألقى الخُطَبَ منددّاً



غاندي يرفض نزع عمامته في المحكمة

بالمعاملة المذلّـة التي يلقاها الهنود في جنوب افريقيا . ومن أقواله في هذا الصدد :

« إن الشرقيّ ، مهما يكن مهذّباً ، لا قيمـة له في نظر الأوروبيّين المستعمِرين . فالهنود ، في اعتبـارهم ، حيوانات عديمةُ القدر ، يطلق عليها اسم « كولي » أي « عتّال » . غير أن هذه الكلمة لا تعني في جنوب افريقيا ما تعنيه في الهند ، أي انها لا تدل على انسان شريف ، بـل تُطلَق على كل مخلوق حقير مرذول . فالمستعمِرون يعاملوننا معاملة البهائم ، لأن الهنودَ في نظرهم كأوساخ آسيا ، أو كأرانب كثيرة العدد ، عديمة القيمة ، حتى إن أحد الخطباء الإنكليز في « دوربن » قال : « إني شديدُ الأسف لعدم تمكُّني من اصطياد هؤلاء الأسيويّين وقتلهم، كما أصطاد الأرانب وأقتلها » !

وأحدثت هذه المقالات ضجة كبيرةً في الهند وغير الهند ، وتناقلتها بعض الصحف الأوروبية القليـلة ، المعارِضة للتمييز العنصري . ولما عاد غاندي الى جنوب افريقيا احتشد جمهور من البيض وأراد قتلَه، فاضطرت

الحكومة الى حجزه في السفينة ثلاثةَ وعشرين يوماً لإنقاذه من الموت رجماً بالحجارة على يَدَي الاوروبيين هناك .

وما كاد ينزل الى البَرّ ، بعد هذا الحجز الطويل حتى حُوصر منزله ، وأراد المستعمِرون إشعال النار فيه ، فأُخرج منه في ثياب شرطي ، وحُجز من جديد في أحد المخافر حتى هدأت الأحوال .

والواقع أن مثل هذا الاضطهاد الشرس يتم في صوَرٍ مختلفة وفي أماكن كثيرة ، كلّما استطاع الأوروبيون أن يستولوا على بلدٍ ويطردوا أهلها منها .. وتكون النتيجةُ على الدوام أن يطرد أهلُ البلاد المستعمِرين الجُددَ .. ولكن ، بعد عذابٍ طويل .

٥

الوداعة البطولية

في سنة ١٨٩٩ نَشِبت حربُ البُوَيْر ، بين الإنكليز المستوطنين وبين سكّان الترنسفال الأوروبيّي الأصل . كان الفريقان يتنازعان على نَهْبِ أراضي أهل البلاد الأصليّين .. فالجميع في الشرّ سواء .. وكانت حرباً ضاريةً سُفكتْ فيها الدماء بلا حساب ، ولم يتورّع المحاربون عن إحراق القرى ، وتدمير المنازل على رؤوس أصحابها ، والفَتْكِ بالنساء والأطفال والشيوخ. فانتهزَها غاندي فرصةً ليلقي على الإنكليز أعظم درس تلقّنوه في تاريخهم . لقد دعا إخوانه الهنود المضطهَدين الى

التطوّع ، فلبّـوا نداءَه ألوفاً . إلا أنه لم يجنّـدهم للقتال ، بل لإسعاف الجرحى ، وإغاثة المرضى ، ومساعدة الذين شرّدتهم الحرب . ولمـــاذا يشترك الهنود في حربٍ بين جماعتين من الأوروبيّـــين !! دعهما تُفني الواحدة منهما الأخرى .

راح الهنود يُعرّضون صدورهم للرصاص لينقـُلوا الجرحى على المحفّـات ، فقـُتل منهم عدد كبير ، ولم يكونوا يطمعون من وراء ذلك بأقلّ أجرٍ أو مكافأة. لقد أحسّـوا ان السماء أرسلت اليهم زعيماً محباً ، مخلصاً ، يعمـــل على إنقاذهم ورفع شأنهم ، وما كاد هـــذا الزعيم يدعوهم الى التضحية حتى بادروا الى البذل ، لا يسألون لماذا .

وأخذ نجم غاندي يتألّق ، فبدأ المستعمِرون الأوروبيّـون يحسبون له حِساباً . الا أن معاملتهم الظالمةَ للهنود لم تتغـيّر ، فعزم غاندي على متابعة نضاله . وباشر حركته بدعوة إخوانه الى الاتحاد والتضامُن لمقاومة كل ظُلمٍ يلحق بهم . واتحادُ المظلومين أولُ درجةٍ لإبعـــاد الظلم عنهم ..

وفي سنة ١٩٠٤ اشترى غاندي جريـــدة « الرأي

الهندي » وجعلها مِنبراً لحركتـه ، فأيقظت المظلومين من سباتهم العميق، وفتحت عيونهم على حقوقهم المهضومة، واستثارت شعورهم بأنهم بَشرٌ لهم كرامتُهم. فتكاتفوا، وراحوا يتذمّرون من أحوالهم التي لا تطاق ، ولا يرضى بها انسان جديرٌ بهذا الاسم .

ولم يكتفِ غاندي بإصدار جريدتـه ، بل اشترى أرضاً واسعة في « ناتال » وأنشأ فيها مزرعةً تعاونيّةً جعلها ملجأً أميناً لكلّ عامل مضطهَد ، ولكل مظلوم سُلِب حقه .

وفي الأُمسيات الهادئة كان يخاطب ضيوفه قائلاً :

« إحذروا الغضب ، فهو من وحي الشيطان . وطهِّروا قلوبكم من الحقد ، فهو يضرُّ بحامله أكثر مما يضرّ بالذين أحدثوه . انتبهوا من ظالميكم وعالِجوهم بالرّفق والمحبة حتى يَلِينوا . قاوِموا الظلم والاستعباد بالصبر ، واعلموا أن السادَةَ (الأوروبيين) لا يمتازون عليكم بشيء ، بل أنتم السادةُ ما دمتم تكدّون

وتجدّون مخلصين ، وما دام شِعارُكم قائماً على الاستقامة والمحبة » !

وكان يعيش بين اللاجئين اليه عِيشَةَ الزُّهدوالتقشُّف، مكتفياً ، مع زوجه وأبنائـه ، بخشِنِ المَلْبَس وزهيد الطعام . وفي هذه المزرعة صـام للمرة الأولى . ولصيامه هذا قصة حافلة بالعِبَر ، مَفادُهـا أن احدى النساءِ المؤمنات برسالته عجزت عن تحمُّلِ قسْوةِ الحيـاة الى جانبه ، فغادرت المزرعة ، ولجأت الى المدينة . ثم ندمتْ وعادت مستغْفِرةً ، فَجَثَتْ على قدميه ملتمسةً الصَّفح عن زلّتها ، فأنهضها قائلاً :

ـ كم يوماً غبتِ عنا ناكثةً عهدك ؟

قالت : واحداً وعشرين يوماً .

قال : أتائبةٌ أنت ؟

أجابت : نعم ، إني تائبة .

قال : حسناً ، ساكفّر عن خطيئتك يوماً بيوم .

وهكذا صام عدد الأيام التي استغرقهـا غيابُ تلك المرأة تكفيراً عن ذنبها .

وكثيراً ما استنكر مواطنوه الهنودُ طريقته السلبيَّة في المقاومة، وطالبوه بالردِّ على الاضطهاد بالعُنف والتَّقتيل، لأن المستعمِرين الوحوشَ لا يفهمون إلاّ لغةَ القوَّة. فكان يقول لهم:

« المحبّةُ وحدَها أقوى من الظلم والطغيان، فلا بُدّ للظالمين من أن يخضعوا لها اذا مارستموها مؤمنين بها، وجعلتموها سبيلاً في الدفاع عن كرامتكم. أضرِبوا عن العمل. تظاهروا سلميّاً. احتجُّوا على الاضطهاد. أدخلوا السجون لا مُبالِين. تحمّلوا أعمال القمع برباطة جأش. قابِلوا التعذيب بقوّة الإرادة والتصميم على الوصول الى حقوقكم ».

وكانت هذه الكلمات تستقرُّ في العقول والقلوب فتُثمر، وتكسِبُ الحركة الغانديّةَ قوة واتساعاً حتى شملت « الترنسفال » و « ناتال »، وفاضت منها على البلدان المجاورة.

سُجن موهان ثلاث مرات، فما لانَ له عود، وهلك من أنصاره ألوف فما فتّ ذلك في عَضُد المناضلين.

وبدأت بطولاتُ الهنود والافريقيّين تدهش الوحوش الأوروبيّين، فلا يصدّقون أن أولئك الذين كانوا أغناماً قد انقلبوا أبطالاً .. بين ليلةٍ وضحاها .

تلك هي قوّة موهنداس غاندي . أليست إيماناً بالحقّ في الحياة ، وثباتاً على التصميم في الوصول الى ذلك الحق ! !

ومن سوء حظّ المستعمرين وحُسن حظّ شعب الهند ، أن الانكليز لم يفهموا معنى حركة غاندي . فلم يُدركوا مدى قوّتها ، وبادروا الى قَمْعِها بالقوّة . لقد اعتقلوا عشراتِ الألوف من العمال الهنود والافريقيين، ولم يتعرضوا للنساء . غير أن هؤلاء اقتدَين برجالهن ، ورُحن يحرّضن على الإضراب والعصيان المدني . وما أخطرَ نضال الجماهير على المستعمرين ! انهم يرّهَبونه كثيراً .. فاضطرّ المستعمرون الى اعتقالهن وزْجهن في السجون مع أطفالهن . وكانت « كاستوربي » ، زوج غاندي ، في طليعة المعتقَلات ، الى جانب عدد كبير من المرضى ، والعجزة .



زوجة غاندي في طليعة المعتقلات

ولما وصلت أخبار هذا الاستبداد الى أوروبا تناولها الكتّاب الأحرار بالنّقد الشديد ، فاحدثت ضجةً كبيرة في الرأي العام العالمي ، ونقمةً شديدة على مسلك الانكليز الشرِس . وما انفكّت حركة الإضراب تتّسع حتى شملت جميع المناجم .. وعبثاً حاولت الحكومة إعادة العمال الى عملهم . لقد عرفوا طريق نزع الحقوق من الذين يستغلّونهم .

يومذاك سار مئاتُ الألوف من الرجال والنساء والأطفال في الشوارع . وكانوا لا يقاتلون ، ولا يقاومون معذّبيهم . لكنهم يتحدّونهم ، لأنهم لا يهابون الموت . فعجزت الحكومة عن قهرهم .

وقرر غاندي أن يزحف بهذا الجيش الذي لا يحمل سلاحاً من « ناتال » الى الترنسفال، خارقاً أوامر الحكومة، ليُرْغمها على زجّ عشرات الألوف في السجون . ولما بدأ هذا الزحف انخلعت قلوب الأوروبيّين من الخوف ، فطالبوا حكومتهم بوضع حدٍ لحركة الجماهير مهما يكلّف الأمر . فلم يكن للسلطة مفرٌ من اعتقال غاندي . وزاد

ذلك المتظاهرين حماسةً وتصلباً ، فتابعوا زحفهم حتى اعتُقلوا جميعاً ، وأصبح جنوبُ افريقيا ، في نظر العالم ، سجناً واسعاً للأبرياء المطالبين بأبسط حقوق الانسان ، سجّانه أوروبيّون يدّعون الرقيّ والحضارة كذِباً وزُوراً ..

وهذا أول انتصارٍ أحرزه غاندي على الصعيد العالمي ، وكان سلاحه فيه : المحبّة المُسالمة والمصمّمة على نيْل الحقوق .

وكانت حملة الصحافة الأوروبية على الجنرال الإنكليزي سمَطْس ، حاكم جنوب افريقيا ، بالغةَ القسوة . فاتّهم بتشويه وجه المدنيّة الإنسانية ، وأُرغِم على إلغاء التدابير الظالمة التي أعلن غاندي ثورته السلميّة عليها .

وقد علّق الكاتب الفرنسي « رومان رولان » على هذه النتيجة قائلاً :

« هكذا ظهر سحرُ الروح الكبرى وعزيمتها اللّذان لا يُغلَبان ، فَفعلا فِعلهما ، وأرغما القوة الغاشمة على تعفير رُكبتَيها جاثيةً أمام الوداعة البطولية » .

٦

مقاومة العنف بالمحبة

ثم إن غاندي انتقل الى بلاده ، شبه القارّة الهندية .. وهنـــاك فكّـر في تحرير البلاد من ظُـلم مستعـمِريها الإنكليز ..

ولم يشأ أن يباشر حركتَـه التحريرية هذه قبل أن يدرس أحوال الشعب الهندي ، ويلمسَ أسباب تخلّـفه وشقائه . فراح ينتقل من بلد الى آخر في الهند ، ويزور الفلاّحين في أريافهم . وقد أفزعه ما كان يعـــانيه الشعب الهنديُّ من الظـلم والحرمان ، وما هو عليه من الجهل

المطبِق ، وما يفتك به من أمراض . ولا عجب من ذلك ، فهذه دائماً مخلَّفات المستعمِرين !

رأى غاندي عيالاً كبيرة تعيش في أكواخ قذرة ، ولا تحصل على ما تسدُّ به الرَمق إلا بشقّ النفس، فأخذ يواسي المرضى ، ويشجّع البائسين ، ويحثُّ الجميع على المطالبة بحقوقهم . فاستاء منه الاقطاعيُّون الهنود. وهؤلاء أعوان للإنكليز بطبيعة الحال ، فهم يشاركونهم الأرباح في نهب الشعب الفقير . . ولقد طالَبوا الحكومة بوضع حدٍّ لنشاطه، واتهموه بتحريض الشعب على الثورة . فأُلقي القبض على غاندي ، وأُحيل الى المحاكمة . فأعلن الفلاحون العصيانَ المدني ، وكان تضامنهم عجيباً أدهش حكّامَ المستعمَرة وجعلهم في موقف حرج . حتى إن المدّعي العام طلب تأجيل المحاكمة تفادياً لاندلاع الفتنة . فعارضه غاندي قائلاً :

– إني متَّهم بتحريض الفلاّحين ، وقد حرَّضتهم . قلتُ لهم إنهم مظلومون ، فإذا كان تنبيههم جريمةً فأنا مجرم ، وما على القضاء إلا أن يعاقبني .

ولكن القاضي الانكليزي قدّر عاقبة الموقف وأبى أن يُصدِر حكمه ، وأطلق سراح غاندي . فعاد هذا الى إكمال جولته محدِّثاً أبناء الشعب عن واجبهم نحو نفوسهم وبلادهم ، وعن حقهم في طَرْد الاستعمار الإنكليزي ، وفي الحياة الكريمة . وما انفكّ يعمل ليلَ نهار حتى اضطرت الحكومة الى إلغاء بعض القوانين الجائرة التي كانت تسلِّط الأقوياءَ والأغنياء على الضعفاء والفقراء ، وتنشر القلقَ والخوف في أنحاء الهند .

ولما نشبت الحربُ العالمية الأولى أكّدت بريطانيا أنها تقاتل دفاعاً عن حقوق الشعوب ، فانخدع بذلك غاندي،واعتقد أنها تنوي حقاً تعديل سياستها الاستعمارية. لذلك دعا الهنودَ الى مؤزارة بريطانيا وفرنسا . فتجنّد مئات الألوف من الهنود في صفوف الجيوش الحليفة ، وإليهم يرجع فضلٌ كبير في الانتصار .

إلا أن بريطانيا ، بعد ان انتصرت بدماء أبناء المستعمرات ، تناست وعودَها ، وأَبتْ إلا أن تعود الى حكم الهند بالقوانين الاستعماريّة الجائرة،وان تحمّل الشعب

الهندي أثقالاً لا طاقةَ له بها. فعاد غاندي إلى بَعْثِ حركته الاستقلالية . وكانت شهرته قد اتسعت في بلاده ، فاحبه المظلومون والمضطهَدون ، واعتبروه منقذهم وقائدهم الوحيد الى الحرية والكرامة .

ولم يكن غاندي قد يئس ، حتى ذلـــك الحين ، من أن تعود بريطانيا إلى صوابها فتَتَبَرَّ بوعودها للشعب الهندي . انه لم يكن يعرف خداع المستعمِرين على حقيقته بعدُ .. وعلى هذا الاعتبار ظلّ موالياً لهـــا ، فاعتمَدَ المقاومة السلبيَّة ، وحدّد نهجه بأنه : « انتصار الحقيقة بقوة الروح والمحبة » .

وقد أخطأ كثيرون فظنّوا ان غاندي يدعو الى عدم المقاومة . أما هو فاوضح طريقته قائلاً :

«إني أُنَمِّي في الإنسان الشجاعة المطمئنَّة الى أن يموت من غير أن يقتُل . ومَن ليست له هذه الشجاعة فالأفضلُ له أن يبرع في صَنْعَة القتل واستقبال الموت ، فهذا خيرٌ من عار الفرار أمام الخطر » .

وشرح خطته في النضال السلمي فقال :

« أتدري كيف كانت تدور المعارك بيننا وبين خصومنا الانكليز المدَّججين بالسلاح ؟ كنَّا نتقدم في سبيلنا ، فتعترض صفوفَنا البنادقُ في يد الأعداء ، إلا أننا نتقدم غير حافِلين بها، فتنطلق منها النيران، ويسقط منَّا مَن يسقط ... فنتابع سيرنا مسالمين ، غير مقاوِمين ، لا نرفع يداً على قاتِلينا.. فيطلق هؤلاء رصاصهم من جديد، ويسقط منا من يسقط ، فلا نتوقّف ، ولا نبالي ، كأننا السيلُ الجارف !.. وعندئذٍ كان أعداؤنا يُلقون سلاحَهم، ويجمُدون في أماكنهم مرتبكين ، وقد استولى عليهم الخجل ... فيما نحن نتقدم ولا نلوي على شيء ، فيُفسحون أمامنا الطريق ، ويدركون أننا قهرنا قوتّهم بصبرنا وشجاعتنا » .

وكثيراً ما أعلن غاندي أن مذهب « اللاعنف » ليس غايةً في حد ذاته ، بل هو وسيلة لبلوغ الاستقلال . ومن أقواله : « خيرٌ للشعب الهندي أن يعدِل عن هذه الطريقة وأن يعتمد العُنف فيسحق الاستعمارَ الانكليزي ، من أن يفقد شجاعته في النضال » .



غاندي وقد أعلن الصيام

وقد صاح يوماً أمام الجماهير المحتشدة :

ـ أفضِّل أن أرى الهند تلجأُ الى السلاح للدفاع عن شرفها ، على أن أقفَ كالجبان لأَشهد عارَها ... وخيرٌ لنا أن نحرز استقلالنا بالعنف إذا كنا لا نستطيع الخلاص من الاستعباد إلا بالقتال .

إذن، كان طردُ الانكليز هو الهدف،ولا تهمُّ الطريق.

وفي ٦ نيسان ١٩١٩ شهد المستعمرون بادرةً أذهلتهم : أطلّ الفجر ، ثم أشرق الصباح ، فإذا بالهنود : في المدن والقرى والدساكر ، في السهول والغابات ، في الجبال والأودية ـ يلزمون بيوتهم ، وينقطعون عن كل نشاط. منصرفين الى الصوم والصلاة . فَبَدَت الهند من أقصاها الى أقصاها كأنها خالية خاوية ، لا حياة فيها ولا حركة .

لقد لبَّت الأمة كلُّها نداء غاندي الذي خصّص هذا اليوم للتأمل والاتصال الروحي بالله . لقد وثق الشعب بغاندي فسار معه ، ولو كان زعيماً متاجراً بالوطنية ، مثلَ بعض زعماء الشرق ، لما تَبِعه أحد ..

انخلعت قلوب المسَيْطِرين هلعاً،وقالوا في نفوسهم:

« إذا كانت مئات الملايين من الهنود يلَبُّون دعوة غاندي الى الصلاة بمثل هذا الإجماع المدهش ، فكيف به إذا دعاهم يوماً الى القتال ؟ »

كانت التّفرِقة تفتُّ في عضُد الشعب الهندي، وتُتيح للمستعمِرين والأقطاعيين من أعوانهم التحكُّم به ، والاستيلاء على أرضه وخيراته ، فجاء غاندي يجمع الصفوف ، ويوحِّد الكلمة .. وفي هذا قضاءٌ محتوم على أعداء شعب الهند .

واستطاع المستعمِرون افتعال حوادث دامية في بومباي والبنجاب ليجدوا مبرّراً لتدخُّلهم بالقوة . وهذا ما تلجأ إليه أية حكومة يكرهها شعبها . فبادرَ غاندي الى تهدئة مواطنيه ، ودعاهم الى الصبر . غير أن الإنكليز اعتقلوه ، وقرّروا أن يُغرِقوا حركته في الدم .. لقد عاودتْهم طبيعةُ الأوروبيّ ، المستعمِر الذئب !

وفي ١٣ نيسان ١٩١٩ اجتمع عشرات الألوف من الهنود ، رجالاً ، ونساء وأطفالاً ، في مكان يدعى «جاليونا الاباغ» . فهاجمهم الجنرال « داير » الانكليزي ، وفتح

عليهم النار . فقتل منهم ستمائة ، وجرح ألوفاً .. هـذا رغم انهم كانوا عُزَّلاً مسالمين . . يا لنذالة الجنرال الإنكليزي هذا !!

ولم يقف داير عند هذا الحد ، بل أرسل طائراتِه تقصِف الجماهير مِن الجوّ ، وساق ألوفَ الرجال الى السجون ، وأشبعهم إهانةً واذلالاً ، حتى انه أرغمهم على أن يدخلوا الى المحكمة زحفاً على بُطونهم . وكان هذا شاهداً ناطقاً على مدنيّة حكومته ، على مدى العصور !!

ولما تسرّبت هذه الأخبارُ الى الخارج أحدثت ضجّةَ استنكارٍ كبيرة في مختلف أنحاء العالم ، وألحقت ببريطانيا كل ازدراء . وخَشيت بريطانيا ذلك ، فأصدرت لندن أمرَها بإطلاق سِراح غاندي فوراً . فعاد الى متابعة نضاله بقوّة مضاعَفة وارادةٍ لا تَلين . يومذاك أعلن خطة « **اللاتعاون** » مع الإنكليز حتى يرضَخوا ويعيدوا الى الهند حقّها .

وكانت هذه الخطة تقضي بالتخلّي عن الألقاب

ورُتَب الشرف ، ورفْض شراء سنـدات القروض التي تعقدها الحكومة ، وإضراب المحاكم ورجال القانون عن العمل ، وفصل الخصومات بالتحكيم الأهلي ، ومقاطعـة مدارس الحكومـة والوظائف على اختلاف مراتبهـا ، ورفْض المنـــاصب المدنيـة والعسكرية ، والدعوة الى الاستقلال الاقتصادي للهند .

وبادر غاندي فوراً الى تطبيـــق هذه الشروط على نفسه . فردّ الوِسامَين اللذين كان قد نالهما من الحكومة الانكليزية اعترافاً بفضله في الأعمال الإنسانية ، ووجّــه الى حاكم الهند الانكليزي رسالة قال فيهـا ، بعد أن ندّد بأساليب القمع المتبعة في البنجاب : « **لا يسعُني أن أحفظ في صدري عاطفة حبّ واحترام لحكومة كلها مخازٍ ورذائل، ولا أستطيع حمل هذين الوسامَين وأنا مرتاح الضمير !** »

واقتدى ألوف الهنود بزعيمهم.. فاستقال الموّظفون، وأضرب الطلاب ، وهجر المتقاضون المحاكم . وطفِقَ غاندي ينظّـم الحركات الشعبية ، متنقّـلاً من منطقـة الى منطقة . وكان همُّـه الأكبر أن يظل الشعبُ هادئاً ، فـلا

يحدث انفجار يبرّر لجوء الإنكلـيز الى السلاح . وكان يقول بصراحة :

– إذا قُدِّر للهند أن تعمد الى العنف ، فليكن عنفها منظّماً ، أي أنه لا بد لها من إعلان الثورة المسلّحة .

ولم يقتصر نضاله على بعث الشعور الوطني في صدور الهنود ، بل توجّه الى وجدان الشعب الانكليزي ، وخاطبه بحرارة المؤمن بالحق والعدالة ، فقال له : « ان حكومتك الاستعمارية قد اعتمدت الظلم ، فحطّمت ثقة الهنود بها ، ولكن الشعب الهندي ما يزال واثقاً بمروءة الشعب الإنكليزي، وتعلّقه بمبادىء الشهامة والشرف. إن الهند لا تستطيع أن تقاوم بريطانيا اليومَ إلا بالشجاعة المعنوية،فهي إذ تعتمد اللامعاونة تعلم بأنها تبذل تضحياتٍ كبيرة ، ولكنها لا تبالي بخسارتها لأنها تريد أن تملك بآمالها قلوبَ الشعب الانكليزي ! »

وكان لهذا النداءَ صداه البعيد في العاصمة البريطانية ، فانهال الانتقاد من المواطنين البسطاء ، على الحكومة الانكليزية من كل حدبٍ وصوب ، وأدرك الواعون أن حركة غاندي منتصرةٌ لا محالة .

٧

حوار مع طاغور

رأى غاندي أن بريطانيا تَحْتَكِرُ شراء القطن الهنديّ بابخس ثمنٍ لتعود الهندُ فتشتريه قماشاً بأثمان باهظة ، فدعا مواطنيه الى مقاطعة البضائع الانكليزية . أليست سبيلاً لسرقة ثروة الهند !

وحمل غاندي المِغْزَلَ ليكون قُدوة لسواه، وليحمل الهنودَ على غزل القطن في أوقات فراغهم ، وبذلك تتعطّل مصانع بريطانيا ، ويثور المشتغلون فيها على حكّامهم.

وانتشرت هذه الفكرة بسرعة مذهلة .. فراح مئاتُ

الألوف من السكان يحرقون الأقمشة الإنكليزية، ويعتبرونها رمزاً للعبودية والاستعمار . وهذا صحيح الى حدٍّ كبير .

غير أن الشاعر الهنديّ الكبير والحكيمَ الذائعَ الشُّهرة رابندرانات طاغور - اعتبر هذه الأعمال تعصُّباً ، ولام غاندي على التنكُّر للصناعة الإنكليزية التي تعتبر تقدُّماً حضارياً لقد كان الشاعر الإنساني يفكر فيما لا يدركه المستعمرون . فدافع غاندي عن وجهة نظره قائلا :

« ان الصناعيين الانكليز يستغلُّون بؤس الشعب الهندي وآلامه ، ولا يهمهم غير الكسب . »

« وكم من صناعات محلِّيَّةٍ قضَت عليها المنافسة الانكليزية ، فأفلس أصحابها وأصبحوا من المنبوذين .. فهل يجوز بعد هذا لأحد الهنود ان يشتري نسيجاً أنتجه هؤلاء الصناعيّون المستبدّون ؟ إن الصناعة الإنكليزية أساسٌ من أسس استعمار الهند » .

وأكد غاندي أن دعْوته تبعث في الشعب روح النشاط وتدفعه الى العمل ، إذ يضطرُ إلى الاتّكال على نفسه .

وقد أجاب طاغور بأن العالم سائرٌ حتماً الى التفـاهم بين الشرق والغرب ، وأن في دعوة غاندي نَزْعةً ضيّقة تعرقلِ سيْرَ التقدم . إلا انه أثنى على الحركة الاستقلالية بلا تحفُّظ، وشبّه قائدها بالإله بوذا الذي أيقظ الهندبالحبّ والرحمة . ثم أبدى تخوُّفه من ان تؤدّي سياسة اللامعاونة الى إثارة الأحقاد ، وتضييق آفاق الثقافة . ومما جـــاء في رسالة وجّهها الى غاندي قوله :

« ... ان الطائر ، متى أيقظه الفجرُ من مرقـده لا يستغرق في طلبِ الغذاء نهارَه كله ، بل إن أجنحته تخفق تجاوباً مع دعوة الحساء ، فيما ترسل حنجرتـــه الى النور الجديد أناشيد الفرح والحبور ... »

وهكذا كان طاغور الكبير ينظر الى آفاق لا يقدّرها الإنكليز ولا المستعمرون الأوروبيّون عامة ..

فأجابه غاندي :

« ان الهنود الذين هوجموا في بُيوتهم لم يقوموا بعمل واحد يثير الحقد . لقـــد سَلب الإنكليز حقوقهم ، وهم يناضلون لاستعادة هـــذه الحقوق . أنتَ ، يا أخي

الشاعر ، محلقٌ فوق البشرية المعذَّبة ، أما أنا فارى حولي أناساً يموتون لأنهم لا يجدون قوتاً ، فلا أفكّر إلا بإيجاد طعام للجائعين . ان الهند بيت شبّت فيه النار ، والله لا يتجلّى لشعب جائع إلاّ في صورة رغيف . وهذا حقٌ وصحيح . **لقد خلق الله الانسان ليكسب معاشه بعمله ، والذين يأكلون ولا يعملون ليسوا سوى لصوص .**
لنفكّر في ملايين الناس الذين يعيشون في أحوال أحط من أحوال العجماوات (الدوابّ) ، والذين ينتظرون الموت جوعاً ، لندرك قيمة المِغزل . إن الشاعر يحيا لِغَدِه ، لا ليومه ، وهو يريد أن يحملنا على الاقتداء به ، فيلوح لنا بصورة الطيور الجميلة التي تستيقظ لترسل تسابيحها ، او لتحلّق في الأجواء ، غير أن هذه الطيور ليست جائعة ، فلها كلَّ يوم رزقُها ، واذا حلّقت فإنها تضرب الأجواء بأجنحة مرتاحة تجدّد نشاطَها في الليل . أما أنا فعرفت الألم لأني رأيت طيوراً تلاشت قوتُها ، فما خامرتها رغبةٌ في تحريك أجنحتها .. ان الطائر الإنساني تحت سماء الهند ليَستيقظ صباحاً وهو خائر



غاندي ومغزله الذي قهر الاستعمار الانكليزي

القوى ، لأن قواه قد سلبها الانكليز وأعوانهم من الأقطاعيين الهنود .

« وأرى أخيراً أنه يتعذر تسكين آلام الجائعين بنشيد أو قصيدة.. فاعطوا هؤلاء الجائعين عملاً يكسبون به ما يأكلون » !

ما أصدق ما يقول غاندي ! إنه ينطبق على كل مكان..

ولما أشرفت سنة ١٩٢٠ على نهايتها عقد المؤتمر الوطني الهندي اجتماعاً قرر فيه المطالبة بالاستقلال ، والعمل لإحرازه بالطرق الشرعية والسلمية .

ودعا المؤتمرون جميع الهنود ، من مختلف العناصر والمذاهب والطوائف ، إلى الاتحاد والتزام اللامعاونة ، ومقاطعة الحكومة ، ورفض دفع الضرائب . فبادرت السلطة إلى اعتقال الألوف من الرجال ، ومنعت التظاهرات متهمة المناضلين بنشر الفوضى والتمرد على النظام .

وكان غاندي ينتظر تمادي السلطة في طغيانها ليعلن العصيان المدني .

وفي تلك الأثناء جدّد مطالبته بإعادة الاعتبار إلى المنبوذين الذين لا يقلُّ عددُهم عن ستّين مليون نسمة ، فلقيَ منهم تجاوباً عظيماً ، خصوصاً لمـــا أعلن أمـام الجماهير قائلاً :

« خيرٌ لي أن أقطّع إرباً من أن أنكر إخواني من الطبقات المدحورة . وإذا قدّر لي أن أبعث حياً بعد موتي ، فاقصى مُناي أن أكون في هؤلاء (الأنجاس) لأشاطرهم ما يتلقّون من إهانات وأعمل على إنقاذهم ! »

ومن أقواله :

« ان إعادة المنبوذين الى مكان لائق في المجتمع الهنديّ هي الخطوة الأولى التي نخطوها على طريق الاستقلال ، ونحن لن نكون أفضل من الحيوانات ما لم نتطهّر من هذا العار ! »

وكان من البديهيّ أن يتوجّه المنبوذون بعقولهم وقلوبهم إلى هذا المنقذ العظيم ، فمنحوه محبتهم وولاءهم ، وأحسّوا أنه أعاد اليهم الثقة بنفوسهم .

ولا عجب إذا كان الهنودُ قد خلعوا على غاندي لقب « مهاتما » ، أي الروح الكبيرة ، لأنه قاد مئات الملايين على طريق الحرية بقوّته الروحية التي أدهشت العالم .

كان يقول للمنبوذين :

« ان اللعنة التي حلّت عليكم هي من الأرض ، لا من السماء ، فأنتم مظلومون ، ولا يجوز أن تظلّوا مظلومين . فتكتّلوا ، ونظِّموا صفوفكم ، وبادِروا إلى العمل . وكُلِّي ثقة بأنكم ستقدِّمون للهند خدماتٍ جليلة ، وستساهمون مساهمة فعالة في تحريرها من الاستعباد . »

ورأى المرأة مظلومة متأخرة ، فطالب بمساواتها بالرجل ، وحثّها على الكفاح للحصول على حقوقها كاملة.

٨

عظمة الوداعة

على الرغم من استمرار غاندي في دعوته إلى اللاعنف والنضال السلمي ، فقد نشبت عام ١٩٢١ معاركُ دامية بين الإنكليز والهنود . وقد تجلّت على أثر هذه الحوادث شخصيَّة المهاتما في أروع مظاهرها . إذ تبيّن انه يزداد طيبةً وتواضعاً بقدر ما تتسع شهرته ويشتدّ نفوذُه . انه لم تُسْكِرْه الزّعامة ، ولم يجد الغُرورُ سبيلاً اليه ، فظلَّ لشعبه أباً ، ومُرشداً ، وناصحاً ، وأخاً محباً .

والحقّ أن الزعيم الذي يَسْكر بمنصبه يكون سائراً في طريق الهلاك .. وما أقربَ عليه أن يخونَ شعبه !

وكانت السلطة الاستعمارية تبذل قصارَى جهدها للتّفريق بين الهندوس والمسلمين وبذر الشعور الطائفيّ فيما بينهم. وذلك عملاً بخطّتها التقليدية: «فرِّق تسُد»، فردَّ عليها غاندي، في ٤ تشرين الأول ١٩٢١، بإعلان تضامنه التامّ مع المسلمين مع أنه هندوسيّ، وذلك على أثر اعتقال الزعيمَين المسلمين الأخوَين: محمد علي وشوكت علي. يومذاك أذاع بياناً وقّعه خمسون من أعضاء المؤتمر الوطني، حظر فيه على الهندوس الخِدمةَ العسكرية والمدنيّة مع السلطة الانكليزية، وكان المسلمون قد سبقوه الى إصدار مثل هذا البيان.

وكيف لا يفعل غاندي ذلك وهو يوقن أن «الهند لشعبها كلِّه، لا للإنكليز وأعوانهم من الهندوس او المسلمين».

في هذه المَوْجه من القلق قرر وليُّ عهد الامبراطورية البريطانية ان يزور الهند، على اعتبار انها «أكبر ممتلكاته!»، فعزم الشعب الهنديُّ على الامتناع عن استقباله، إظهاراً لمشاعرهم تجاه رمز الاستعمار البريطاني آنذاك.

وفي ١٧ تشرين الثاني ١٩٢١ ، وصل الأمير الى بومباي فاستقبله كبارُ الأغنياء والأقطاعيون الذين يؤيدون الحكم القائم ، خيانةً لوطنهم الذي يصارع ذلك الحكم .

فهاجمهم أبناء الشعب ، واشتبكوا معهم في معركة سقط فيها مئاتُ القتلى وألوف الجرحى برصاص الانكليز حمايةً لأعوانهم من الهنود .

فهرع غاندي الى بومباي مستنكِراً هذا العنف ، ووبّخ الذين لجأوا الى السلاح قائلا :

« سلاحنا الوحيد هو قوة الروح ، وبه يجب أن ننتصر ! »

إلا انه ما كادت الثورة تخمُدُ في بومباي،حتى اندلعت نيرانها في أماكن أخرى ، فاعتبر نفسه مسؤولاً عن الدم المراق ، وقرّر ان يصوم أربعاً وعشرين ساعة في الأسبوع تكفيراً عن ذنوب أتباعه .

وظنّت السلطةُ الانكليزية أن الفرصة سانحة لقمع الحركة الاستقلالية والقضاء عليها ، فلاحقت أنصار غاندي واعتقلت عدداً كبيراً منهم ، وزجّتهم في

السُّجون . غير أن عددَ المناضلين كان يزداد مائةً أو ألفاً في مقابل كلِّ رجل تقبض عليه الشرطة .

وأعلنت الحكومة أن وليَّ عهد الامبراطورية سيزور كلكوتا في ٢٤ كانون الأول ، فأعلن غاندي هذا اليوم يومَ صومٍ وصلاة .

ولما وصل ولي العهد الى المدينة الكبيرة رآها خاويةً خالية،مقفَلة المتاجر ، يسودها صمتٌ شامل رهيب .

لم يرَ في شوارعها هندياً واحداً ، وهي التي تغص بالناس ليلَ نَهار ، فاسودّ وجهه من عُنف اللَّطمة ، واستولت عليه الدهشة ، وسأل أحد مرافقيه :

ـ ما هذا ؟

فأجاب المرافق ، وهو يكاد ينفجر غيظاً :

ـ مولاي ، هذا أحد مظاهر عصيان غاندي .

فادرك الأميرُ ان الهند دخلت عهداً جديداً من تاريخها ، وأن خصم الاستعمار البريطاني رجلٌ عظيم سينتزع النصر انتزاعاً .

كانت الهند تعاني داء التفرقة فضعُفتْ ، وخضعت لِنيِر المستعمرين ، ولما اتحّدت وجمعت صفوفها انتصرت واستقلّت .

وكان غاندي هو الرجلَ الذي بعث في شعبها الوعيَ والإرادة ، ثم دفعه الى العمل بصراحةٍ ووضوح . فلما امتلأت السجون بالمناضلين ، أعلن غاندي العصيانَ المدني، وذلك بعد ان أنذر به نائبَ الملك قبل إعلانه بمدّةٍ طويلة ، إذ وَجَّه إليه رسالة جاء فيها :

« إني أعلن العصيان المدني احتجاجاً على حكومتكم التي اعتدت اعتداءً فظاً على حُريّة القول والاجتماع والنشر» .

وردّت السلطة باطلاق الرصاص على الجماهير العزلاء، فثارت فئةٌ من الذين تعرضوا لهذا العنف ، وحصرت رجالَ الشرطة في كتلةٍ من المنازل وأحرقتْها .. فهلكوا فيها جميعاً . ولم تكن تقصد الفتك برجال الشرطة من الهنود ، إلا لأنّهم يقبلون التعاون مع السلطة الإنكليزية الممقوتة في البلاد .

ولما علم غاندي بهذه الحادثة حزن حزناً عميقاً، وقرّر تأجيل العصيان المدني على الرغم من معارضة القسم الأكبر من أنصاره ومؤيديه .

قال لهم والأسى يهدّج صوته :

— إني مسؤول عن الدّماء التي تهدر !

وعزم على الصوم خمسة أيام،وهو في حالٍ من الهزال يحتاج معها الى مزيدٍ من الغذاء ليتابع كفاحه المضني .

وتوسل إليه بعضهم أن يؤّجل صيامه ، فأجاب:

ـ يجب أن أطهّر نفسي. يجب أن أكون في حالةٍ تسمح لي بتسجيل أقلّ التغييرات الطارئة على معنوياتي .

واشتدّ الجدل بينه وبين أنصاره .

قالوا : ان تأجيل العنف مراراً يُضعِف نضال المواطنين ، ويثبط همتهم .

فاجاب : أجّلتُه احتجاجاً على ما رأيت من تصرفات عنيفة لا أريدها .

قالوا : الخصوم أحرجُونا !

قال : يجب أن نابى العنفَ في أعماق نفوسنا ، لا في مظاهرنا لأننا عاجزون عن القتال .

قالوا : الحكومة استفزّتنا ، فكان علينا أن نقاتل لئلاّ نُحسَب جبناء .

قال : الحكومة تريدكم أن تثوروا وتقتَتِلوا لتُجرّد عليكم سلاحها . إنكم ، إذ تقتلون جنودَها ، تخدُمونها وتنفّذون الخطة التي وضعتْها لاستعبادكم .

وعلى هذا الاعتبار أرجىء تنفيذ العصيان المدني إلى فرصة ملائمة .

وانتشر بين الجماهير خبرٌ مَفاده أن السلطة عازمةٌ على اعتقال غاندي ، فاشتدّ القلق ، غير ان المهاتما استعدّ لمواجهة الطوارىء ، وقال لأنصاره :

– إني أبارك السّجن ولا أخشاه ، انه يقوّيني روحياً ، وستكون نتيجته كسباً عظيماً لقضيّتنا الوطنية .

ونشر في جريدة « الهند الفتاة » مقالاً افتتحه بالعبارة التالية :

« ليكنْ يومُ سجني يومَ عيد وفرح للشعب الهندي ! تظن الحكومة أنها إذا سجنت غاندي انتهى أمرها مع الهند ، فاثبِتوا لها يا أبناء أرض الهند نقيض ما تظن ، واجعلوها تدرك قوّة الشعب » .

وأوصى أنصاره قائلاً :

« متى دخلتُ السجن أخلِدوا الى السَّكينة والهدوء، ولكن اهجُروا المحاكم ، وقاطِعوا الحكومة ، وتقيَّدوا باللامعاونة .. وستجِدون أن هذا يُلحِق بالحكومة الخزيَ والخذلان » .

٩

وقفة تاريخية

قال الكاتب الفرنسي رومان رولان ما معناه : إن غاندي بشَّر باللاعنف ، ولكن ... ليس هناك ما هو أقرب إلى الثورة من لا عنفه هذا .

وهذا ما أدركته الحكومة الاستعمارية في الهند ، فحزمتْ أمرها على سحق حركة التحرير بالقضاء على باعثها وقائدها . غير أن القادة الانكليز لم يُحسنوا اختيار المناسبات لتنفيذ خطَّتهم بنجاح . ومن أخطائهم التي لا تقع تحت حَصْر أنهم اعتقلوا غاندي تمهيداً لمحاكمته يوم عارضَ العصيان المدني ، وحمل المؤتمرَ الوطني على تأجيل

تنفيذه ، وشجب أعمال العنف التي وقعت في كلكوتا حين زارها ولي عهد بريطانيا . وقد جاءت أعمال السلطة الحمقاء مصداقاً لقوله : « ان الاستعمار يودّ أن يرى بلادنا مليئة بحوداث القتل والنهب والحريق ليجد مبرّراً لاستعمال القوة الاستبدادية الساحقة » .

ولما زُجَّ في السجن نشر بياناً موجّهاً الى الرأي العام الهندي ، والرأي العام البريطاني ، شرح فيه كيف حوّلته تصرّفاتُ الحكومات الاستعمارية من رجل مخلصٍ للامبراطورية البريطانية ، الى رجل يكرهُها ويحرّض على طرد رجالها من الهند .

وقال : ان الهندي يفقد حقوق الانسان في ظل الحكم الاستعماري ، لا لشيء إلا لأنه هنديّ ، وإنه قدَّمَ للإنكليز خدماتٍ جليلةً في حرب جنوب أفريقيا ، فقابلوه بنُكران الجميل وعادوا إلى الطغيان الذي لا يطاق .

وذكر الأهوالَ التي أنزلها المستعمرون بسكان البنجاب ، وجاليانا ، والله اباد ، وتمثيل الجنود بالأبرياء ، وجلدِهم في الساحات العامة ، وتعمّدِ إذلالهم ، حتى

أصبح كل هندي شريف يؤمن بأن أقدس واجباته هو إعلان الثورة على بريطانيا وسحقها بالأقدام .

ومن أقواله في هذا الصدد :

« إن الهند التي لا سلاح لها لا تستطيع مقاومة من يعتدي عليها ، وقد بلغت من الفقر حداً جعلها غير قادرة على مقاومة المجاعة . فالاحتلال الانكليزي عرقل تقدمها ، ودمر صناعه الغزل فيها بأساليب دنيئة خالية من الشعور الإنساني ، فأصبح عشرات الملايين من الهنود مهددين بالموت جوعاً ، بعد معاناة أقسى ضروب الحرمان ! »

ومن أقواله أيضاً :

« ان المبالغة مهما بلغت ، وان اللعب بالأرقام مهما عظم - لا يستطيعان وصف ما تراه العين المجردة ويدركه العقل من شقاء الهياكل البشرية التي تملأ القرى الهندية ، وهي فريسة الجوع والجهل والمرض ... ولست أشك في أن سكان المدن في بريطانيا سيسألون : هل في السماء رب يرضى باستمرار هذه الجريمة بحق الإنسانية ؟

انها لجريمةٌ لا مثيل لها في التاريخ ، هي جريمة بريطانيا في سرقة أرزاق الهنود ! »

وكتب في جريدة « الهند الفتاة » :

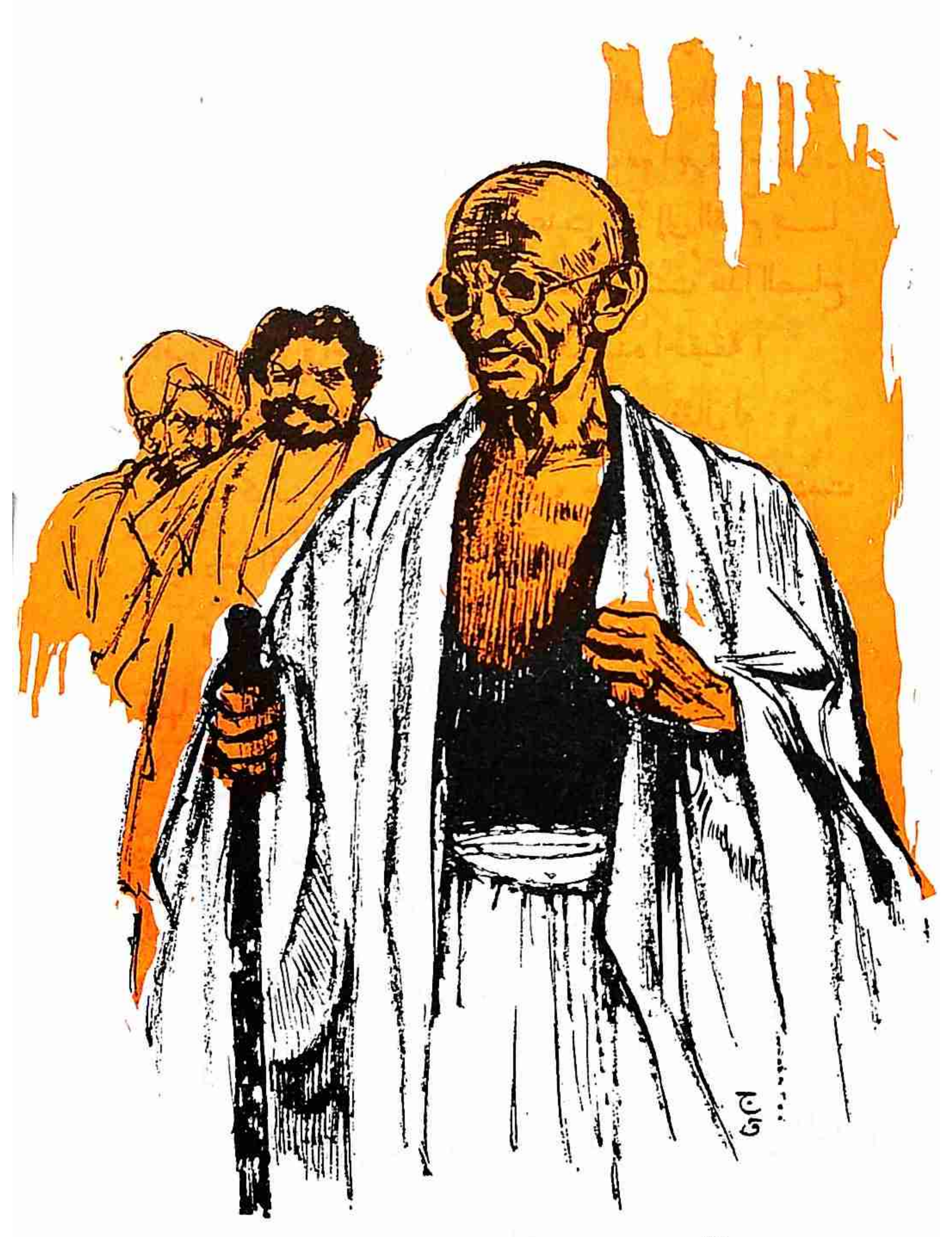
«لا صُلح مع الامبراطورية البريطانية ما دام (الأسد) البريطاني يهزُّ في وجوهنا مَخالبه الدامية ! إن هـــذه الامبراطورية القائمة على القوة الحيوانية لا يمكن أن تدوم إذا كان في السماء إلهٌ عادل ... إننـــا نريد أن نقلب الحكومة الاستعمارية ، وأن نُكرِهها على الخضوع لإرادة الأمة الهندية ، فنحن لا نسأل منها رحمةً ، ولا رجاء لنا فيها . إننا أصحاب حقٍّ وقد قرَّرنا أن نحصل عليه » .

ولما وقف أمام المحكمة ، قال له القاضي الإنكليزي « برومسفيلد » :

ـ أنتَ متَّهم بالتحريض على حكومة صاحب الجلالة، وهي الحكومة التي أقرَّتها القوانين ، ودعوتَ إلى كرهها وازدرائها .

فأجاب بهدوء ووضوح :

ـ صدق النائبُ العام في توجيه هـــذه التهمة إليّ ،



غاندي في طريقه الى الاعتقال

فأنا مسؤول عن أعمالي ، خصوصاً لأني حظيت بنصيب من الثقافة والخبرة . كنت أعلم أني ألعب بالنـــار ، فأقدمتُ على عملي مختاراً ، وارتضيت مواجهة الخطر . فـــإذا أطلقتم سراحي اليوم عُدت غداً إلى القيام بمـــا تحاكمونني من أجله الآن ... ولقد أحسستُ هذا الصباح بأني أخونُ واجبي إن لم أُصارحكم بهذه الحقيقة !

وأحسّ القاضي بأنه يضيق به ذرعاً ، فقال له :

ـ كيف تريدني أن أُخفّف حكمي عليك ما دمت تدلي بهذا الاعتراف الذي يوجب إدانتك ؟

فأجاب بالهدوء نفسه ، وعلى وجهه ابتسامة تتجلّى فيها معاني التواضع والتصميم معاً :

ـ إنـــك ، يا حضرة القاضي ، أمام أمرين : إما أن تستقيلَ لتقطعَ علاقتك بالشرّ ، إذا كنت تعتقد أن القانون الذي بين يديك قانون ظالم ، أو أن تطبق هذا القانون وتحكم عليّ بأشد العقوبات .

قال القاضي :

ـ منذ اثنتي عشرة سنة حكمتُ على الثائر الهنديّ

« جنجوار تيلاك » بالسجن ستّ سنوات ، وليس ذنبك أخفّ من من ذنبه !

فرفع غاندي رأسه باعتزاز ظاهر وأجاب :

– يشرّفني جداً ان يقترن اسمي باسم المناضل البطل « جنجوار تيلاك » ، ولا شكّ ان حكمك هو أخفّ ما يمكن ان يفرضه قاضٍ عليّ ... هذه مجاملة لم أكن أتوقّعها !

ملأت أخبار هذه المحاكمة العالم ، وتناقلتها الصحفُ والإذاعات ، وأثنى كبار المفكرين في الشرق والغرب على شجاعة غاندي .

ولما دخل السجنَ اشتدَّت المقاومة ، وغمرت الهندَ كلَّها نقمةٌ عارمة على الإنكليز ، وازداد المناضلون إقداماً ، فعمدوا لكل أنواع الضغط والتنكيل . وأيقن المستعمرُ أنه أعجز من ان يقمع هذه الحركة العارمة التي يجرف سيلُها كل ما يعترضه من قوات مسلحة .

وتأثَّر الرأي العام العالمي ، إذ استولى عليه الذهول

أمام ما تحلّت به هذه الحركة من الروعة والصبر والشجاعة والتصميم ، فتنادى كثيرون من الأحرار في أوروبا وأميركا وآسيا وافريقيا إلى نُصرة الهند في نضالها العادل، وطالبوا بإرغام بريطانيا على إنصاف المظلومين واحترام حقوق الأمة الهندية .

والمرة الأولى في التاريخ كان السلام ، في قبضة القوّة الروحية ، سلاحاً أشدّ فعاليةً من الحديد والنار . لقد كان الرجل الهزيل العادي، موهنداس كرمشند غاندي ، أقوى من تاج الامبراطورية البريطانية التي كانت لا تغيب عن أملاكها الشمس. وكان الشعبُ الأعزل ينتصر على الجيوش المدّججة بالسلاح .. مما جعل طاغور يقول :

« ان للقوة المعنوية سلطاناً أقوى من سلطان القوة البَهيميّة . وفي هذا برهان قاطع على أن الإنسانَ الضعيف ، ذا القلب المؤمن ، يستطيع أن يلقي عنه سلاحه ، وان يقول إن النصر الأعظم هو لقوّة الروح لا لقوة الساعد » .

ومن أقوال غاندي في هذا المعنى :

« إن غاية جهادنا هي صداقتنا للعالم أجمع . لقد أشرق اللاعنف على الناس ، وسيظل مشرقاً » .

وأمضى المهاتما عامين في السجن ، فساءت صحّته حتى قيل إنه أشرف على الموت . فاستولى الذُّعر على الحكومة البريطانية ، ودعت لمعالجته طبيباً يدعى «مادوك» ، فتبيَّن له انه مصاب بالتهاب الزائدة الدودية ، ونقله الى المستشفى فوراً ، على مسؤوليته الخاصة ، وأجرى له عمليةً جراحية .

ولم يُنشَر هذا الخبر إلا في صباح اليوم التالي ، لمّا زالَ الخطرُ كلياً عن غاندي . فاجتاحت الهندَ موجةٌ من التظاهرات الصاخبة مطالبةً بالإفراج فوراً عن المهاتما ، ودعا الزعيم المسلم « محمد علي جناح » الى جعل العاشر من شباط ١٩٢٤ يومَ صلاة وصومٍ من أجل غاندي ، الزعيم المناضل ، وحامل راية الاستقلال

وخشيت الحكومة الاستعمارية نشوب الثورة في الهند فأطلقت سراح المهاتما في الرابع من شباط .

١٠

رائد المحبة

اعتزل المهاتما كل نشاط سياسيّ ، على أثر خروجه من السجن ، واعتكف موقّتاً ليستعيد صحتـــه المتداعية . وكان يعلم ان الحكومة الاستعمارية بذلت قُصارَى جهدها لتبثّ روح التفرقة بين الطوائف الهندية ، فأذاع بياناً قال فيه :

« إذا كنا نريد أن تستقلّ بلادنا ، فيجب أن تتحد طوائفنا اتحاداً وثيقاً لا يعتريه انفصام . فلا أسألكم أن تصلّوا لأجلي ، وتحمدوا الله على شفائي ، بل أقول لكم ان اتحادكم يعيد إليّ العافية بقوة ليست في مقدور الأطبّاء .

لقد أقلقتني أخبار عن منازعات نشبت بينكم ، ولن أجد إلى الراحة سبيلاً ما دام هذا الهمّ في صدري . إني أتوجه الى الذين يحبّونني لأقول لهم : اتحدوا ! » .

ويبدو ان هذا النداء لم يؤدّ إلى النتيجة الإيجابية التي كان المهاتما يتوخّاها، فقرر أن يصوم واحداً وعشرين يوماً حتى يزول كل خلاف بين الطوائف المتنافرة .

ولم يكن في حالة صحيّة تسمح له بتحمّل الصيام فذُعر الهندوس والمسلمون ، وحاولوا جميعاً صرفه عن الصيام . فابى ، وظل مضرباً عن الطعام حتى أشرف على الموت . وكانت بادرته هذه أشدّ فعالية في جمع الكلمة وتوحيد الصفوف من مختلف المحاولات التي اعتاد رجال السياسة القيام بها . فهو لم يكن طائفيّاً مافوناً .

ولمّا انقضت مدة الصيام عاد المهاتما الى العمل السياسي ، وأعلن المبادىء التالية :

ـ اتحاد الطوائف هو السبيل الوحيد الى الاستقلال .

ـ المنبوذون مواطنون ، واعتبارهم أبناء نجاسة هو لطخةُ عار على جبين الهند .

ـ لا تعاون مع السلطة الانكليزية المستعمِرة .

ـ اتّباع اللاعنف قولاً وفعلاً .

ـ مكافحة المظالم وإنصاف العمال والفلاحين .

ورأى أن يقوم بعمل كبير فقرر دعوة الشعب الى مسيرة الملح .

وفي ١٢ آذار ١٩٣٠ باشر ما سماه المؤرخ الإنكليزي جوفري آشي : «أغرب وأبرز تحدٍّ في العصر الحديث» . وقد استغرقت هذه المسيرة أربعة وعشرين يوماً .

والمعروف عن الهنود انهم يستهلكون كميّاتٍ كبيرة من الملح ، وكان محظوراً عليهم أن يستخرجوه من أرضهم،لأن الحكومة الاستعمارية كانت تحتكره .. ملقيةً بضريبته ِعبئاً مرهقاً على كواهل الفقراء . فقرّر غاندي تحدّي قانون الاحتكار ، وأعلم نائبَ الملك بعزمه على التمرد . وكان يستهل كلامه معه ورسائله اليــه بعبارة « صديقي العزيز » .

وفي اليوم المقرر لبدء حركة التمرد، انطلقت المسيرة الكبرى على طول ٣٨٨ كيلو متراً ، فوصلت الجماهير



غاندي في سجنه

الهندية إلى شاطىء البحر في اليوم السادس من نيسان .

وبعد صلاة الصباح ، انحنى المهاتما والتقط قطعة من الملح البحري ، فاقتدى به الشعب الهندي بأسره . وكان هذا العمل تحدّياً رمزياً للسلطة البريطانية .

وراحَ مئات الألوف من الفلاحين يستخرجون ملحهم من البحر . وفي أسابيع قليلة اعتقلت السلطة حـوالى مائة ألف رجل وامرأة ، وكان المهاتما بـين المعتقلين . إلا أن مسيرة الملح وما جرَّته وراءها من ذيول ومضاعفات أثبتت للعالم ان الهند عازمة على إحراز استقلالها ، وتقرير مصيرها بإرادة شعبها .

وبعد هذه المسيرة الظافرة انصرف غاندي كلياً الى معالجة مشكلة المنبوذين فقرر القضاء على مبادىء الطائفية.

فقد شاهد أن الطائفيَّـة سلاحُ إجراميّ يستفيد منه أغنياء الهندوس والمسلمين على السواء .. وجميعُـهم ضدّ مصلحة الوطن وإلى جانب المستعمِـرين .

وفي سنة ١٩٣٢ وضعت السلطة البريطانية مشروع قانون يقضي بأن ينتخب المنبوذون نوّابهم على حِدة ،

وفي معزل عن الشعب الهندي ، فعارض المهاتما هذا المشروع معلناً ان المنبودين مواطنون هنود ، ولا بد من تغيير نظرة مواطنيهم اليهم .

وانتصرت وجهة نظره بعد صيام كاد يودي بحياته ، فشهدت الهند ، للمرة الأولى منذ قرون عديدة ، أحراراً ، ونبلاء ، ومنبوذين جالسين الى مائدة واحدة ، يتناولون طعاماً واحداً جنباً الى جنب . فكتب مراقب هندي معلّقاً على هذا الحديث :

« إذا كان ثمة عمل استطاع تدمير المعتقدات القديمة بشأن المنبوذين ، فهو ذلك الصوم الذي أعلنه غاندي ! »

واستطاعت السلطة الاستعمارية أن تشعل نار الفتنة الطائفية في مدينة نوافالي ، فذهب المهاتما فوراً اليها ، وهو في السابعة والسبعين من العمر . وكانت الخواطر مضطربة ، والأحوال متوترة بين الهندوس والمسلمين ، فابى غاندي إلا أن يحلّ هذه الأزمة . وأجمع المعلّقون على ان هذا أنبل عمل في حياته النضالية الحافلة بالأعمال العظيمة .

هناك اختار مقرّاً له في مكانٍ ثمانون في المائة من سكانه مسلمون ، وأكثرهم ناقم عليه ، فتجوّل في الحقول والقرى رافضاً حماية الشرطة، لثقته التامة بأن جميع الهنود إخوان على الصعيد الوطني .

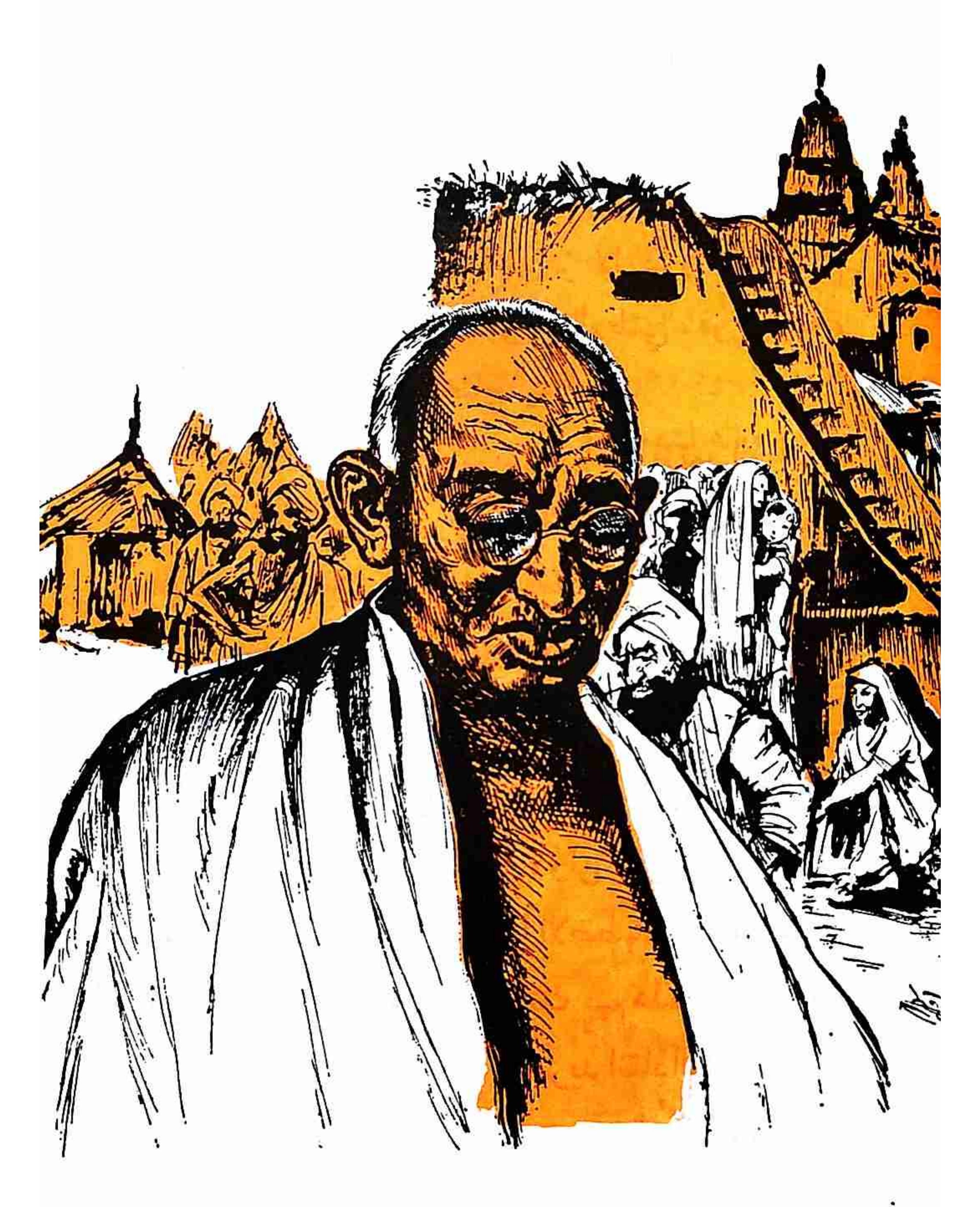
مشى حافياً في الوعر .

تخبَّط في وحول المستنقعات .

اجتاز مائة وسبعة وثمانين كيلومتراً متنقّلاً من بلدة الى بلدة ، زائراً الأكواخ الحقيرة المبنيَّة بالتراب ، مبشّراً بالهدوء والسلام .

وقد استغرق عملُه هذا أربعة أشهر ،فخمدت نار الفتنة.

وسنة ١٩٣٤ انسحب من حزب المؤتمر الوطني واعتزل السياسة ، فاقتصرت زعامته على التوجيه غير المباشر ، وأصبح دورُه دورَ أبٍ حارسٍ شفيق . غير أنه ظل واقفاً في وجه الحكومة الاستعمارية وقفة الزعيم المطاع ، ينظّم الفكر العام ، ويوحد الصفوف، وينمّي الادراك في عقول الجماهير ، ويدعو الى الاعتصام بالقيم الانسانية العليا، حتى أيقن ان الهند قد استيقظت من سباتها الطويل ، وبدأت تسير بخطى واسعة على طريق الاستقلال .



غاندي يتجول في قرى المسلمين

ومن أبرز أعماله العظيمة انه جعل الهند تنظر إلى أهدافها الوطنية والاجتماعية الحيَوِيَّة ، وهذا أعظمُ ما يبلغه المصلحون في هذه الحياة .

وكان المهاتما قد عرف جواهر لال نهرو منذ عام ١٩١٦ ، في أحد اجتماعات المؤتمر الوطني ، فوثِقَ به ، وأدرك أنه القائد الذي تحتاج اليه الهند .

وما لبث نهرو ان تولى رئاسة المؤتمر الوطني ، فناصرَ الحركاتِ التحريرية في العالم ، واستنكرَ العدوان الياباني على الصين .. فبدأ نجمه يلمع .

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية حاولت بريطانيا وضع نيرِها من جديد على عنق الهند ، حانثةً بكل ما قطعت من عهود ، فاذا بغاندي يخاطب ضمير العالم قائلاً :

« انكم لن تعرفوا الفقر ، ولن تعرفوا الجهل ، ولن تعرفوا المرض ، ولن تعرفوا الاضطهاد ، إلا اذا عرفتم الهند ، ورأيتم أبناءها الذين تفتك بهم هذه الآفات ، وهي آفات تزعم دُول الاستعمار انها تريد انقاذ البشرية منها ... فالقرى عندنا ليست سوى أكوامٍ من القُمامة ، وسكانها لا

يستنشقون الهواء النظيف لأنهم مستعبَدون . والحقول حولهم ممتلئة بقولاً وثماراً ، ولكنهم لا يأكلون مما تنتج أرضهم لأنهم أشد فقراً من ان تتوافر لهم المواد الضرورية للحياة . وهذا كله نتيجة الاستعمار ... »

« أجل ، ان سبب المجاعات والأمراض التي تفتك بملايين الهنود ، هو الاستعمار الذي يستنزف خيرات هذه الأمة ، وانه لشديد الحرص على إبقاء شعبنا غارقاً في العجز والانحطاط ! » .

وفي تلك الاثناء ثارت الهند الصينية ، وبرزت الحركة الاستقلالية في أندونيسيا ، فادركت بريطانيا أن الهند مقبلةٌ على الاستقلال لا محالة . وشاءت أن تستبقَ الحوادث تفادياً لاندلاع النار ، فوافقت على إجراء انتخابات عامة لمجالس الولايات والمجلس التأسيسي في شتاء عام ١٩٤٦ . فخاضَها حزب المؤتمر الوطني على أساس استقلال الهند ووحدتها ، وأحرز انتصاراً كاسحاً .

وفي ١٥ آب ١٩٤٧ أعلن استقلال الهند ، وكان ذلك اليوم عظيماً بالنسبة الى المهاتما غاندي . وأبدت بريطانيا استعدادها للجلاء في حزيران ١٩٤٨ .

١١

متاعب الانقسام

كان استقلال الهند حدثاً تاريخياً عظيماً ، على الرغم من كل ما اعترضَه من نكسات ، واضطرابات داخلية ، وحوادث دامية . فقد أدرك الشعبُ الهندي حقيقته وحقَّه ، واستيقظت فيه روح الكرامة الوطنية ، فبدأ يتحرر من عُقَده ، ويتخلى عن بعض تقاليده البالية ، ويبني حياته الجديدة على أُسس من العلم ، مصمماً على السير قدُماً في درجات الرقي والفلاح .

كانت حياته في ظل الاستعمار الإنكليزيّ ماساة رهيبة، فيها من ألوان الاستعباد ما لا يطاق ، إذ حرصت

السلطات الحاكمة ، بكل ما أوتيت من المكر والدهاء ، على زرع بذور التفرقة بين الطوائف والشيع ، وعلى إبقاء سواد الشعب في ظلام من الجهل ، تفتك به المجاعات ، وتنتشر فيه الأمراض .

وقد وجدت بريطانيا مجالاً رحباً لتدبير مؤامراتها ، وحياكة دسائسها ، لأن الهند بلاد مترامية الأطراف ، مساحتها ثلاثة ملايين ومائتان وثمانية وستون ألف كيلومتر مربع ، وعدد سكانها أكثر من خمسائة مليون نسمة . وهم يتكلمون عشرات اللغات، ويقطنون بقعة من أخصب بقاع الأرض ، وأحفلها بالخيرات الطبيعية .. إلا انهم يعيشون في البؤس والحرمان ، لشرور الاستعمار ، ولاعتمادهم أساليب الانتاج البدائية . ناهيك بأن بريطانيا كانت ترهقهم بالضرائب والرسوم ، وتحجب عنهم أنوار العلم لتبقى مسيطرة عليهم .

ولعل أفظع جريمة ارتكبها الإنكليز بحق الشعب الهندي هي أنهم خنقوا كل نهضة صناعية حاول الهنود تحقيقها للإفادة من مواردهم العظيمة .

وكان هذا الشعبُ الكبير مقسَّماً إلى طبقات : أولاها طبقة الملاّكين الذين يعيشون على تأجير أراضيهم ، وهم لا يتجاوزون مليون نسمة . وثانيتها الطبقة المتوسطة المؤلفة من التجار وأصحاب الأعمال الحرة والادارية، وهم يقدَّرون بعشرين مليون نسمة . وتليها طبقة الشعب المؤلفة من الفلاحين والعمال والخدم ، وهي تعيش في فقر مدقع ، وجهلٍ مطبق ، على الحد الأدنى من ضرورات الحياة الإنسانية .

وكانت تأتي في نهاية هذه الطبقات الثلاث ، طبقةُ المنبوذين الذين لا تجوز عليهم الرحمة ، وهم متَّهمون بالدَّنس ، وتُفرض عليهم الأعمال القذرة ، ويعتبرون أحط قدراً من الحشرات .

وقد رأينا ان همّ غاندي الأول كان إعادةَ الاعتبار الى هؤلاء الأشقياء ، ورفعهم من المستوى الحيوانيّ الذي كانوا فيه الى المستوى الانساني المحترم . وقد نال في محاولته هذه نجاحاً عظيماً ، وجعل المنبوذين مواطنين

هنوداً ، لهم ما للمواطنين من حقوق ، وعليهم مـا عليهم من واجبات .

ومتى علمنا ان عدد المنبوذين لا يقلُّ عن ستّين مليون نسمة ، عرفْنا مدى الثورة الاجتماعية التي أحدثها المهاتما في بلاده ، وقيمة الخطوة التقدمية التي سجلها في تاريـخ الهند الحديث .

وإذا كان غاندي قـد أعلن الحرب على الإنكليز فلاعتقاده الراسخ بأنهم السببُ الأول والأخير لانحطاط الهند ، وشقاء أبنائها . وقد أثبت الواقـــع صحة هذا الاعتقاد حينَ ارتفع َشرُّ الاستعباد عن أعناق الهنود ، واستطاعوا ان ينصرفوا الى تحسين زراعتهم ، وترقيـةِ صناعتهم ، ونشر العلم في صفوف شعبهم .

ظلت بريطانيا تفرض حكمها على الهند من غير أن تلقى مقاومة تستحقُّ الذكر حتى نشأت الحركة الوطنية الهندية في منتصف القرن التاسع عشر ، فبَـرَزَ الشعور القومي في النفوس ، وأدى تسهيل المواصلات إلى ترابـط

البلاد سياسياً واقتصادياً ، وبدأ كبارُ المفكّرين ينشرون الآراء الاصلاحية ، ويطالبون بالحركات التقدّمية .

وكان الاستعمار قـــد أوجد فئة من الهنود المثقّفين لتساعدَه على الحكم ، فانقلبت عليه ، ومشت في طليعـة الحركة الوطنية ، ونادت بمبادىء الحرية التي تنعم بهـــا جميع الشعوب الراقية .

وفي سنة ١٨٨٥ نشأ « المؤتمر الوطني الهندي » فكان حدثاً هاماً في تاريخ الهند المعاصر . وكان الانكليز قـد ساعدوا على نشوئه ليجعلوا منه حِزْباً مواليـاً لهم ، إلا أنه تحوّل الى قوة معارضة حين اشترك فيه العمّالُ وأبناء الشعب المعذّبون الذين عانوا من الاستعمار الأمرّين .

وما إلاّ هي سنوات حتى أصبح المؤتمر تعبيراً قويّاً عن قوة الهند المناضلة في سبيل الحرية والاستقلال . وقـد التقت فيه التيّارات الوطنية على اختلاف اتجاهاتهـــا ، فتصادمت مراتٍ عديدة ، ولكنها لم تبتعد عن الخطـــة

الأساسية الرامية إلى تحرير الشعب الهندي ، ورفعه الى المستوى اللائق به في هذه الحياة .

وعلى أثر الحرب العالمية الثانية ، لما أخلفت بريطانيا وعودها ، اشتدت نقمة الشعب الهندي عليها ، وازداد الشعور الوطني حماسة حتى بلغ ذروته بالمقاومة السلبية التي دعا لها المهاتما غاندي . فشملت الجماهير ، وجعلت من الهند التي كانت طوائف ، وشيعاً ، وطبقات متنابذة ـ كتلة واحدة ، عميقة الإيمان بحقها مهما تكن التضحيات التي يتطلبها هذا الحق . فكان هذا التطور من أهم المراحل في سير الهند الى الاستقلال .

وكانت النتيجة المباشرة لهذه الحركة: انتشار مبادىء الحرية ، وشعور الفلاحين والعمال بالإجحاف اللاحق بهم ، ونمو الوعي السياسي ، وتأسيس النقابات التي أصبحت هيئات وطنية مناضلة . وكذلك القضاء على الأحزاب والشخصيات التي تعتمد على الأجنبي .

وسنة ١٩٤٨ ، لما جلت القوات الاستعمارية عن

الهند ، برزت مشكلة التقسيم. وأصبح استقلالُ «باكستان» في حكم المقرَّر ، فاتّسع مجال الدسّ للاستعماريين. وحاول الانكليز بمختلف أساليبهم المعروفة إثارة الهنود على المسلمين ، والمسلمين على الهنود ـ لعلَّ أحد الجانبين يستنجد بهم ، فيعودون الى فرض سلطانهم على البلاد ، مما جعل غاندي يقول لنائب الملك :

– إنكم تنسَحِبون مُحتَقَرين، لتعودوا مكرَّمين!

وظَّلت المشكلة تروح وتجيء حتى قبِل جواهر لال نهرو بالتقسيم .. إذ تبَّين له أن لا سبيل إلى الاستقلال إلا بهذا الحل ، ففضّل خطر الانقسام على عودة الاستعمار وأهواله .

وكان غاندي قد أيقن ، على أثر الحركات الشعبية التي شملت البلاد ، أن الهند قد نجت نهائياً من آفة التعصّب الطائفي ، فقال والسرور يطفح من قسمات وجهه :

ـ لقد انقضت تلك الأيام التي كانت تُفعم قلوبنا

حزناً ، وتُضحك العدوَّ منا سراً وعلناً ، أيام كنا واخواننا المسلمين على طرفَي نقيض... ويا لهف نفسي! بل وارحمتاه للهند وشبابها ، أيام كان اختلافُ الدين داعياً لتقاتُل أبناء الوطن الواحد . وكان الإنكليزيُّ ، لفرط دهائه ، يمسح دموعه ، ويضمِّد جروح المصابين ، ثمّ يشجعهم على الاستبسال في قتال الآخرين ، وهو آخذ بأعناق الجميع ... أيها الناس ، إن الأديان ما كانت لفناء العالم ، وأيّ دين هو ذلك الذي يفرِّق الجماعات التي تعيش على أرض واحدة ، وتحت سماء واحدة ؟ اللّهم إن كان ثمة دين كهذا ، فعلى الأوطان السلام ! وحمداً لك ، يا الله ، على أننا لن نقف ، نحن الهنود، بعد اليوم، عند هذه الحواجز التي ينصبها العدو لينحرنا كالأغنام !

* * *

ولكن غاندي الذي أطلق هذه الكلمات من أعماق إيمانه رأى ، بعد حين ، أنه كان مبالِغاً في تفاؤله ، وأن طريق النضال ما تزال طويلةً أمام الشعب الهنديّ . فقرَّر أن يعود إلى الميدان ، لا ليقاتل أصابع الاستعمار



الاحتفال باستقلال الهند

وحسْب ، بل ليعيد المحبة والوئام إلى صدور الهنود ، وليقضي على التفرِقة ، ويخمد نيران الأحقاد . فأحرز في محاولته هذه نجاحاً كبيراً ، إلا أنه لم يستطع القضاء على فكرة الانقسام .

فمنذ عام ١٩٣٠ نشأت هذه الفكرة في أذهان عدد كبير من المثقفين ، في مقدمتهم الشاعر « إقبال »، وبعض طلاب جامعة كمبردج الذين اقترحوا ـ منذ ذلك الحين، وقبل استقلال الهند بثمانية عشر عاماً ـ إنشاءَ دولة إسلامية تدعى الباكستان .

ولم يكن هذا الاقتراح يعني أكثر من توحيد كلمة الولايات الإسلامية في الهند ، أي : البنجاب ، والسند ، والمنطقة الشمالية الغربية ، وكشمير ، ولم تكن هناك نيَّة انفصاليّة قَطْعاً .

وقد سُئِلت قيادة « الرابطة الاسلامية » عن هذا الاقتراح سنة ١٩٣٣ ، أمام لجنة إصلاح الدستور ، فأجابت بأنه « مشروع خيالي وغير عملي ! » وهو لا يعدو كونه « حلم تلاميذ » .

ولكن هذا « الحلم » ما لبث أن تطورّ حتى أصبح ضرورةً لا مفرَّ منها ، وهذا ما اقتنع به . « جواهر لال نهرو » اقتناعاً تاماً ، فأدرك أن مهمـــة رجال السياسة المخلصِين في كلا البلدين ، الهند والباكستان ، ليست في تلافي الانقسام أو أو في الحؤول دونه ، بل في جعله مقبولاً ، وفي تنفيذه على مستوى من التفاهم الأخوي ، المتبادَل لقطع الطريق على تدخل المستعمرين من جديد.

وفي هذا النطاق يعمل المخلصون حتى اليوم. فالهند والباكستان دولتان شقيقتان متجاورتان ، فمن واجب الشعبَيـن أن ينظرا إلى المستقبل بثقة وإيمان،وأن يتعاونا في مختلف المجالات ليشقّـا طريقهما إلى التقدم والارتقاء .

وفي هذا المضمارقام غاندي بدور عظيم،قد حال دون وقوع الاصطدامات كما مهّد الدرب للتفاهم التام بما له من المحبة والاحترام في كلا البلدين ، فما حاد يوماً عن كونه رسول خير وصلاح .

١٢

انطفاء الشعلة

ظلّت أصابعُ الاستعمار تلعب من وراء الستار حتى وقعت حوادث دامية بين المسلمين والهندوس ، خصوصاً في كلكوتا والبنجاب ، فتدخّل غاندي في الوقت المناسب، وحالَ دون انفجار الفتنة .

ولما تجدّدت هذه الحوادث أعلن إضرابه عن الطعام حتى يسود الهدوء ، وكان قد بلغ التاسعة والسبعين من العمر ، فوقف نهرو خطيباً في الناس وقال :

« لسوف توبّخكم ضمائركم بالعذاب لموت أبي الهند ،

إذا لم تضعوا حداً للأحقاد والضغائن التي تفرّق بين مختلف الطوائف ! »

وقوبل هذا النداء بتجاوبٍ بعيد المدى في صفوف الشعب ، فألّف الشبان والطلاب الوطنيون « فِرَقَ السلام » من الهندوس والمسلمين والسيخ ، وراحوا يجولون في أنحاء الهند داعين إلى الإخاء والوئام .

وكان الذين أشعلوا الفتنة قد ندموا على ما اقترفت أيديهم، فجاء وفدٌ منهم يضمّ خمسةً وثلاثين رجلاً ليلتمس من المهاتما الصّفح عن الجرائم التي ارتكبها المتطرفون .

وقد روى « منوبهن غاندي » هذه الحادثة فقال :

« إن الكلمات تعجز عن وصف ذلك المشهد الرائع . انه صورة الانتصار الذي أحرزه المهاتما بقوّة المحبة » .

ولما استعاد غاندي شيئاً من قُواه ، خطبَ في الشعب قائلاً :

« إن المسلمين والهندوس هم عينا الهند . فإذا أُصيبت عينٌ نال الأذى العينَ الأخرى . والهند بدون المسلمين

أو بدون الهندوس أشبه بفتاة لها عـــين واحدة ... إني مستعد أن أتَّبع الطريق حتى نهايتها لو أيقنتُ أنهـــا الطريق الصالحة . ولسوف أصوم حتى أهـلك ، أو أنقذ الهند من الهلاك . وإني أقول لكم أيها الهندوس ، إن حماية المسلمين واجبٌ عليكم في هندستان ، حتى لو هلك جميع الهندوس في باكستان » .

وفي غمرةٍ من التأثر العام تعهّـد الجميع بإشاعة السلام والوئام ، فابتسم المهاتما ابتسامة الرضا ثم قال :

« إذا تحطّـمت الصداقة القائمة بين طوائف هذه البلاد تحطّـمت الهند كلها . وهذا العهد الذي قطعه الزعماء على نفوسهم ينعش قوّتي ، ويساعدني على أن أحيا بقية أيامي قرير العين ، مؤدياً للإنسانيـــة خدماتٍ تفرضها عليّ نفسي » .

ولما علم أن السلام ساد أرجاء البلاد ، غمرت الغبطةُ قلبه ، وقرر أن يزور الباكستان والإقامة في عاصمتهـــا لمتابعة مساعيه الرامية إلى التوفيق النهائي بين أبنـاء البلد الواحد .

وفي اوائـــل كانون الثاني ١٩٤٨ ، صام غاندي من جديد على أثر اضطرابات عصفت بمدينة « دلهي » وضغطَ على حكومة نهرو لتدفع إلى الباكستان دَين شرفٍ قدرُه خمسمائة وخمسون مليون روبيّة ، هو نصيب الحكومة الباكستانية من أموال الخزينة العامة .

وكانت الحكومة الهندية متحفّظةً في هذا الصدد ، تحاول الامتنـــاع عـن الدفع ، لاستيائها من إصرار الباكستانيين على الانفصال . إلا أنها لبّت دعوة غاندي إذ لمست وجاهتها وما فيها من حقّ .

وفي ٣٠ كانون الثاني من العام نفسه ، تناول المهاتما طعام العشاء في الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر ، ثم خرج الى الحديقة للاشتراك في صلاة جماعية .

وفيما هو سائر بخطى وئيدة ، دنا منه فتى هندي ، وانحنى أمـــامه جامعاً يديه ، كأنه يريدُ الإعراب عن خضوعه ، ثم شَهَرَ مسدساً حربياً وأطلق منه ثلاثَ رصاصات استقرّت منها اثنتان في صدر المهاتما الذي خرّ قائلاً :

« هاي رام ! هاي رام ! » أي : « يا إلهي ! يا إلهي ! »

ونُقل فوراً إلى الداخل .

وما هي لحظات حتى أسلم الروح .

وكان القاتل أحد المتطرّفين الهندوس الذين اعتبروا غاندي متساهلاً مع المسلمين أكثر مما تسمحُ به مصلحةُ الهند ، كما كان على اتصال بالانكليز .

وفي ذلك المساء تحدّث نهرو بالراديو ، فقال بأسى عميق :

« لقد انطفأ النور الذي كان يضيء حياتنا ، وطغت علينا الظلمات من كل جانب ! »

لا ريب في أن الهند لم تعرف رجلاً عظيماً كالمهاتما غاندي ، وطأت قدماه دروبها .

لقد أحبته الهند حبّاً لم تشعر بمثله لسواه ، وكان هذا الحبُّ متبادلاً بينها وبينه : هو أظهرَهُ بالعمل بلا هوادة لمصالحة المسلمين والهندوس من جهة ،



اغتيال غاندي

والهندوس والسيخ من جهة أخرى، والهند قدّرت منه هذه البادرة حق قدرها .

قاد الهند إلى الحرية بأساليب مبتكرة ، سليمة ، غريبه عن روح البغض والانتقام .

وكان أباً لأمته ، آمن إيماناً وطيداً بالقدرة المعطاة للإنسان ليبلغ بها من القمم ما كان يُحسَب فوق متناول الانسان .

وقد صدق إينشتاين حيث قال :

« يصعب على الأجيال الآتية أن تصدق ان رجلاً كغاندي قد وُجد بلحمه وعظامه على كوكبنا » .

ولعل أعظم ما في محرر الهند أنه حمل الى الجماهير المحرومة من سكان بلاده رسالة الأمل ، فامست الأمّةُ كلها تنظر اليه كأنه نبيّ الهند الجديدة .

وقد كان في مظهره مثال البساطة . يضع على عينيه نظّارتين كثيفتين ، ويلتفُّ بكساء الفلاحين الفقراء ، ويحمل ساعة متدلية بخيط مشدود إلى وسطه .

انه جسر امتد فوق الهوة التي كانت تفصل المثقفين عن القرويين الأميين .

كان يختلف عن المستضعفين ، إلا أنه أحب أن يظل واحداً منهم ، يخدم الجميع ، ويتكلم كلاماً لم يسمعه فقراء الهند إلا نادراً .

إنه مناضل من الطراز الأرفع ، لا يعرف التعب حين تكون مصلحة الهند مهددة أو معرضة للخطر .

قال فيه صديقه ج . بيرلا :

« كل يوم تقريبا كان غاندي يحمل الى بلاده أفكاراً جديدة ، وطموحاً جديداً ، وبشائر جديدة » .

وقد أثبت ان طريقة اللاعنف التي انتهجها أقوى من الحرب .. لأنها قائمة على الحق ، ولا بد لها من النصر لأنها تجسد المقاومة المبنية على العقل ، وعلى الإيمان بالنصر ، وعلى قوتها التي لا تعرف التخاذل . ومن شأنها أن تصمد في وجه الشر مهما اشتد وتعاظم .

ويعتقد غاندي أنه لا يجوز للثائر أن يبغض من

يسيء إليه ، بل عليه أن يعلن مسبقاً عن عزمه على خلع الطاعة ، وأن يكون مستعداً لتحمُّل كل شيء ، حتى الموت ، لثقته بأن الحقيقة التي يناضل في سبيلها أهم من الحياة .

ويوم سقط أبو الهند صريع التآمر والتطرّف الأرعن ، انحنى العالم بأسره أمام جثمانه النحيل ، بل انحنى إجلالاً لتلك الإرادة العملاقة ، التي هزّت أركان الامبراطورية البريطانية وحرّكت قلوب مئات الملايين من الهنود .

ويعلم الجميع اليوم أن المهاتما غاندي لم يكن للهند وحدها ، بل كان للبشرية جمعاء .

لقد كان لعظماء المصلحين مثالاً وقدوة .

ومن أقواله المأثورة :

ـ ليس في حياة الأفراد ولا حياة الشعوب خطأ لا يمكن إصلاحه . فالرجوع إلى الصواب يمحو جميع الأخطاء .

ـ يقولون إن من أراد شيئاً حصل عليه . هــذا صحيح ، ولكن بشرط أن يسعى الإنسان للحصول على الشيء الذي يريده . فالإرادة وحدهــا لا تكفي ، بـل يجب أن تقترن بالسعي المتواصل .

ـ كنت أرفض دائماً أن أعمل في السـرّ عملاً أخجل أن أعملَه جَهْراً .

ـ لا رغبة لي في أن أقود رجلاً واحـداً إذا عجزتُ عن مخاطبة عقله .

ـ كي ينبت القمح يجب أن يَهلِك البذار .



على من يشاء التوسع في حياة غاندي وسيرته أن يراجع كتاب « غاندي أبو الهند » من سلسلة أعلام الحرية تأليف الأستاذ قدري قلعجي ، ونشر دار العلم للملايين ، هذا الكتاب الذي كان في طليعة المراجع التي اعتمد عليها في وضع هذا الكتاب .

« الناشر »

الفهرست

النَاجحُون

مجموعة كتب تعرض حياة نخبة من ابطال العالم في الشرق والغرب : في الحروب والسلم ، رجالاً ونساء ، قديماً وحديثاً .

١ – زنوبيا
٢ – خالد بن الوليد
٣ – نابوليون بونابرت
٤ – بتهوفن
٥ – طارق بن زياد
٦ – هنيبعل
٧ – كولومبس
٨ – عبد الرحمن الداخل
٩ – صلاح الدين الأيوبي
١٠ – مدام كوري
١١ – اديسون
١٢ – غاندي
١٣ – شكسبير
١٤ – المتنبي
١٥ – الاسكندر
١٦ – باستور
١٧ – ابن بطوطة
١٨ – هيلين كيلر
١٩ – شجرة الدر
٢٠ – ليوناردو دي فنشي

مطبعة العلوم
حارة حريك - لبنان